الطبعة 2

بثينة العيسى

Bothayna Al-Essa

ارتطامٌ لم يُسمَع له دويّ



مكتبة آفاق

ارتطامٌ ..
لم يُسمَع لهُ دَوِيّ!

بثينة العيسى

مكتبة آفـــاق

ارتطام لم يسمع له دوي

فهرسة مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

813.01 العيسى، بثينة.

ارتطام لم يسمع له دوي/ بثينة العيسى. ـ ط1 . الكويت: مكتبة آفاق للنشر والتوزيع، 2012

160 ص؛ 16.5 سم.

ردمك: 978-99966-59-01-0

1. القصص العربية القصيرة - الكويت أ. العنوان

رقم الإيداع: 434/ 2012

ردمك: 978-99966-59-01-0

الطبعة الثانية

1434 هـ / 2013 م

مكتبة آفاق

Tel.: +965 22256141 - Fax : +965 22256142

P.O.Box: 20585 Safat - Postal Code: 13066 Kuwait

Info@aafaq.com.kw

www.aafaq.com.kw

الإهداء

إلى جميع «ضواري» هذا العالم

الفصل الأول

عندما تندسّ الطفلة الصغيرة

داخل لحافٍ من غيمٍ ومطر

و تحلمُ بالشمس

ستكبر

نجمةً مجنونة !

1

كان يوماً صيفياً من أيام آب، لا يشبه الأيام الصيفية التي أعرفها، وكأن «أبسالا» التي ألامس ثراها لأول مرة ترفض أن تنصاع لأعراف الصيف والشتاء لديّ، فلا يمكن أن يحدث - ولا في الأحلام - أن يهطل الرذاذ في يومٍ كهذا.. في الكويت، هناك .. إذ تجبر الشمس الجميع على التقطيب عابسين حتى لو كانوا في أوجِ سعادتهم، تمارس سيادتها بعنجهية مفرطة ملتذة بما تهبه إياها الصحراء من صلاحيات السطوع الفادح، لأجل أن تمشي في حضرتها مطأطئ الـرأس، تحصي البلاطات، بصاق العمال على الأرصفة، طوابير النمل، علب العصير الفارغة.. ولكن أن ترفع رأسك إلى السماء وتبسم؟ وقاحةٌ هذا الخدشُ الصريح لأعراف الصحاري الجاثمة على أنفاسِ المدينة.

نهارات هذه المدينة كائناتٌ خافتة، تأتي بأذرع متشابكة، وكأنها تخشى أن تفلت من الزمن لحظة دونها ضوء، هنا.. لا تجد العتمة إلا في باطنك العميق، حيث أنت وحدك توغل

في التيه، العالم من حولك يتحدث كل اللغات إلا لغتك، وأنت بجلدك الأسمر ناشزٌ عن اللوحة، فاخلع نعليك! ليس امتثالا لطقوس المثول في الأوديـة المقدسة، وإنما لتركض في داخلك بأسرع ما تستطيع.

تبدو الحياة في السويد مثل يومٍ واحدٍ طويلٍ، أمرٌ رائعٌ! أن تعيش مفرغاً من الانتظار، أن تكون كل أيامك صباحات مباركة، لأن الليل وحده يملك مفاتيح تعرية إفلاسك، وأنت - بحكم عروبتك - عارٍ جداً، وتحتاج إلى أوهام تدثر عارك، أو تدثر عريك، لا فرق! عندما تصبح هويّتك عورة في عالمٍ يناقض كل بديهياتك.

لا شيء هنا أعرفه،

لا شيء هنا.. يعرفني.

يمتد ظله تحت قدمي، ألتفتُ بارتباك، أرتطم بالحذق في عينيه والشيب في شاربيه، يسألني بسخرية فاترة:

- هل سبق أن سافرتِ ؟!

يعرفُ بأنه تحليقي الأول خارج جغرافيا الوطن، هذا الشلل الذي انتابني وشاية عن البدايات في أتمّ تفتحها،

يعرف بأن فتاةً - بكل هذا الخوف - لا يمكن أن تكون قد تحسّست ما وراء غرفتها الصغيرة، أسئلته ابتزازٌ مبطن، إذ يتأمل بلذةٍ دبيب النشوة في جسد البدوية الصغيرة التي ألفت نفسها فجأة في مكان يخالف ما تألفه على سبيل الاعتياد، أجيبُ متعثرة:

- نعم، مرة واحدة.. منذ ثلاث سنوات.. للعُمرة !

- أنتِ الآن تسافرين إلى الجنة.

أنظر إليه، أعصر في شفتيّ ابتسامة، مذ قابلته وهو لا يملأني إلا ارتياباً، عيناه تتبعان فخذيّ امرأة وافر الدسامة، أشعر بقرف لزج من الطريقة التي يمسك بها بحقيبتي، وشكل ظله على الشارع، والأكثر إزعاجاً أنني في مدينةٍ فارهةٍ كهذه لا يسعني إلا أن ألتصق به، طفلةٌ مثلي - وحيدة وجبانة - محمّلة بمهامٍ من الوزنِ الثقيل، بلغة كسيحة وجبين يتفصد عرقاً، كيف بوسعها أن تحتوي هذا الابتعاد الجميل وحدها؟ كنتُ أحتاج إليه/ أستاذي، وكرهته لذلك.

- حقيبتك ثقيلة .. هل أحضرت كل العطور والمكياج من غرفتك ؟

- أحضرت كتبي.

- هل تظنين أنك ستنجحين حقاً؟

يبتسم مرة أخرى، أقرأ في عينيه فضائح ساطعة، هذا الرجل جاء لأسباب أخرى، جاء إلى هنا لأنه وجدها فرصة مثالية للسفر على حساب البلد والنهل من أمواله لأجل التلصص على الأفخاذ، باسم العلم والاكتشاف، لا يلقي بالاً لكونه هنا مسئول وفدٍ يحضر مسابقة عالمية في علم الأحياء.

أردَفَ بعد صمتٍ قصير :

- لم ينجح أيّ طالب من طلابنا من قبل.

- لقد درستُ جيداً.

- لو كنتُ مكانكِ لآثرتُ أن أستمتع بوقتي .. أخبري صديقاتك بأنك شاهدتِ السويد، وأريهن أغراضا اشتريتها حتى يصدّقنك.

- سأريهن ميدالية فوزي!

تباً له، لماذا يضحك فيما تتفتح في شفتيّ ابتسامة ساذجة؟

2

قاعةٌ مستطيلة زجاجية الجدران، تبدو كأنها منسيةً هناك.. في قلب الاخضرار الفاره، فردوسٌ يسمّونها «فيس»، بقعة حية كهذه هي قطعاً الأكثر ملاءمة لوفودٍ قادمة من جميع أنحاء العالم لمسابقة في الأحياء، حيثُ الحياة تقطرُ بين كفيك خصوبة عذراء .

وصلنا إلى أبسالا منذ ساعتين، بعد صبيحة سفرٍ طويل اجتمعت الوفود للتعارف وتناول الغداء، وبالنسبة إلي، لم أرغب في التعارف، ولا في غداء على هذه الشاكلة! كنتُ أجيل ببصري عبثاً في الأطباق التي امتدت على «البوفيه» بمعدةٍ تقرقر، خاطرٌ ساخط اجتاحني بضراوة، ابتسمتُ بمرارة، فمضحكٌ مبكٍ، أن تبحث عن الأرزّ في بوفيه يوفر كل أطباق العالم إلا الآتية من وطنك، بوفيه يزدحم بشتى الأصناف التي لا تأكلها، لأنهم لم يحسبوا حسابك، أنت العربيّ بلونِ الرمل.

يسألني وهو يلوكُ قطعة لحم :

- عمّ تبحثين؟

- الأرز.

- اللحمُ جيدٌ.

- لكنه ليس «حلالا».

يبتسم، يمزق اللحم بأسنانه، أشيح بارتباك، يضحك بلؤم، أعاود البحث، اللحم الورديّ يتوسط الطاولة مثل ملكٍ متوّج، يوليني دبره ويمضي، ألحق به:

- أستاذ.. هلا سألتهم، إن كان عندهم أرز ؟

- «مجبوس» ولا «مطبّق زبيدي»؟

إنه يسخر مني!

رمقني بنظرة ثمّ انخرط في زحام الأعاجم، إنه لن يتعاطف معي بأي شكل! أكدّس أوراق الخسّ في صحني، أجلس في ركنٍ قصيّ، أشتهي أن أتربّع فوق الكرسيّ، فخامة الحضور العالمي من الطلبة والأساتذة لا تسمح باقتراف

العفوية حتى لو كنت طوالَ حياتك معتاداً على الأكل على الأرض مقرفصاً فوق سجادة فارسية، وهذا الطويل بنظارتين سميكتين يحدّق في الكرسي الفارغ أمامي متسائلا عن مدى تقبلي لوجوده، يتراجع فوراً، احتمالٌ واردٌ جداً أن أثور لمجرد أنني أحمل سحنة العرب، شرقيةٌ مثلي، كيف تتصرف لو أن رجلا تجرأ وجلس بجانبها.. إلا بصفعه أو بصفعه ؟

يرمقني الأستاذ، يردد - مثله مثل الجمع هنا من الشقر الغرل والخنازير المخنزرة والقناطير المقنطرة والكؤوس المحرمة يتجرعها بنشوة - يا لها من طفلة عربية! ويترك لي عبثية التأويل بامتداد المسافة الواصلة بين الفراسة والسذاجة.

أصواتهم تتحد، رصاصٌ يعرف في أي صدرٍ يغمسُ رأسه، ويعرف أي الشرايين ستنزف دماءً سوداء، يرفعون كؤوسهم، نخب الحضور الفاره من الطلبة الذين يراهنون على ذكائهم، يرفع كأسه هو الآخر ويشير إليّ «نخبكِ» ولكنه لا يراهن على ذكائي إطلاقاً! يشرب نخب السويد

والكويت والبيولوجيا والنهارات المؤبدة والاختبارات المعقدة، تجول النظرات المنتشية في الوجوه، بعضها سقطت سهواً، على وجبة الخسّ والجبن ولم تجتهد لإخفاء دهشتها، أعينهم تغني: سمراء، جائعة، وبردانة، الفتاة التي جاءت من العالم الثالث! سخرية الجوع طافية على سحنتها، ربيبةُ الذهب الأسود، كالفقراء والمساكين والمؤلفة قلوبهم تأكل خبزاً وجبنة غداء متأخر بعد سفرٍ شاق، في قاعة تغص بكل السحن، حتى الذين نسيت وجودهم ولم ينسوا وجودها، لأنها الشريان الذي يمدهم بالبقاء، ترى.. هل كان إحضارها إلى هنا مجاملة لطيفة منهم لتكون ممثلة سائر الأوطان التي تتحدث بالعربية والبترول والإسلام؟

ولائم البدو الزاخرة تصطخب في رأسي، أنا الإخلاص المستميتُ للعادة بكل أشكالها، حتى لو تلخصت في طبق أرزٍ وهزة فنجان، تنخلني أفكاري إذ أدهن الخبز اليابسَ بالزبدة، أقصى ما وصلت إليه حِيلي لإخماد الجوع، أسمع قرقرات بطني/ مضغ اللحم في أفواههم، الجموع مختلفٌ ألوانها تتحلقُ حول الموائد، ترطنُ بشتى ما لا أفهم من

اللغات، أصواتهم تتلاقح، تتمخضُ ضجيجاً، وفد الصين، وفد فرنسا، وفد المكسيك، وفد فنلندا، ودولٌ لم أسمع بوجودها من قبل، أبدو بينهم كعشبة ضارة، الجميع - ربما - لا يراني إلا برميلَ نفطٍ وبلادة!

أتكوّر عليّ، مثل نطفة نسيت أن تنمو، كما الأشياء المنسية أبداً، التافهة أبداً، كما الأصفار أبدية الاستدارة، تدور حول نفسها.. تبحث عن قيمة! كما الكرة الأرضية صفرٌ عملاقٌ مخبولٌ يلاحقُ نفسه، أنطفئ، بأعينٍ تلتقطُ الوجوهَ وتلقي بها في الذاكرة جزافاً، العالم في الخارج أخضرٌ أكثر مما تستوعبه حواسي، خضرة مجانية ورخيصة.

أنتزع نفسي من هواجسي، أجيل بصري في الجوار، بعيداً عن الأشجار والغيوم وكل ما يثير الرعب، سرعان ما تآلف هؤلاء الطلبة، إلا معي، ليس لأنهم غير منفتحين كفاية، ولكنني منغلقة كفاية، يتعاطون مع بعضهم بأريحية، يريدون أن يستنفذوا متعتهم حتى أقصاها، في حين أنا - الحشرة التي نتف جناحاها - يطرحني الاكتئاب لمجرد أنني لا أستطيع أن أتربّع فوق كرسي.

أسترقُ السمع إلى حديث الجمعِ في الطاولة المجاورة، التلصص هو الشيء المنطقي الوحيد الذي يمكنني أن أفعله لكي أفهم العالم من حولي، الطويل ذاته بنظارتيه يمسح عدستيه بمنديلٍ ويخطب:

- إن الرأي القائل بأنه «لو لم يكن الرب موجوداً لاضطررنا إلى اختراعه»، أو التسليم المطلق بضرورة وجود رب لم يعد صحيحاً بعد ما أحرزه العلم من تقدّم، فالحاجة الملحّة إلى رب لمجرد أن نقنع الفضيلة بمزيدٍ من التواجد أمرٌ ينبغي تجاوزه، لأن الأخلاق هي الأخرى تخضع لاعتبارات النسبية، عوضا عن كوني لا أصدق ما ورد في الإنجيل عن خلق العالم، فكيف يخلق الله النور في اليوم الأول ويخلق الشمس في اليوم الرابع ؟

يهزون رؤوسهم، يتضاحكون ويرفعون الكؤوس نصف الممتلئة بالأصفر، ويشربون نخب اليوم الرابع من خلق العالم، أشيح ببصري مرتبكة، رقبتي تتصلّب، أسمعُ رقع الكؤوس، أعضّ شفتيّ، ترى.. هل هذا هو المنفى ؟!

3

لا أذكر ما حدث، لا أذكر سوى ذلك الارتطام الذي لم يسمع له دويّ، لحظتها كنتُ أسرحُ، أشردُ، أراجع معلوماتٍ أحفظها / الأذكار التي لقنتني إياها أمي / وجوه الغائبين في البعيد، ألتفتُ باحثةً عن أستاذي، و.. لا أذكر .. لا أدري، لكن..

- قوّة !

صوتٌ ينتهكُ صمتي، وجهٌ ينتأ من اللا مكان.. محمّلاً بابتسامة الجوع والمطر، أتمتم بالأذكار وأنفث، إذ أنا أرتطم بالوجه الذي يَهرب خارِج وجههِ، وأطلق صرخة ذعر:

- بسم الله !!

- السلام عليكم.

تبتسمُ بشكلٍ.. لا أدري!

أتراجع خطوات، أرمقك، أبلع ريقي مراراً، أبلع ريقي تكراراً..

وعليكَ مني سـلامٌ من الله ورحمـة، وبركاتٌ وتيه وطلسم، وعليكَ وطنٌ ومنفى، عليكَ أنتَ.. أيها الغريب، عليك توقي ولعناتي.

تجيئني بغتة، سلاماً مزعوماً، فتعيث فيّ حرباً، فهل قلت.. السلام عليكم ؟! نزغٌ من الشيطان أنتَ، مسٌ من التعاويذ والفوضى، أستغفرُ ثلاثاً.. أنا الممسوسة بحضورك الخطيئة، في المكان الخطيئة، أحدّق فيك، بالشعر الممسد بالجِل، مردوداً إلى الخلف وكأنك أمررتَ عليه ألسنةً من صمغ، بأساور الفضة المتدلية بغنجٍ على صدرك، والوشم الصغير لمنجل أعلى ذراعك، كل شيءٍ فيك لا يشبه اللغة التي استخدمتها، ورغم ذلك.. كل شيءٍ فيك يوقظُ فيّ وطناً أعرفه.

مباغتةٌ بدويةٌ مدوية، حضورك الأسمر الفاره، أتراجعُ إلى الخلفِ خطوتين، أتابع تفاصيلك برعب، أكتشفك دونما خجل : سحنة بدويّة معدّلة، تلك السمرة التي لا يجيد استجلابها من الشمس إلا البدو، والشعر الذي وإن تلطّخ «بالجِل» لن يصعب عليك تمييز أنه لأخٍ (العنود أم الجديلة)، حتى الأصابع وإن بدت بأظافر طويلة مصقولة بمبرد

ومحاطة بخاتم فضة، الإمعان فيها يرمي بك في فضاءات حلب النياق ونحر الإبل، سلاسل وأكمام مطوية وقمصان مكشوفة الصدر وكل هذه الرتوش لم تحد بي عن سلّة السيف في أنفك ولا عن حدة الحذق المتكدس في عينيك، والأهم كان الابتسامة المبتورة، الابتسامة التي لم تكتمل في صورة جواز أي بدوي على مر العصور.

تضحك من علائم الذهول على وجهي، أتمرغ في وجهك الملطخ بالغربة، تعاود إلقاء التحية، ويدك سمراء عالية، مثل صارية سفينة:

- الله بالخير يبه!

هكذا، بلهجة شعبية صرف، بهيئتك التي لا تشبه شيئاً، وتشبه كل شيء، خلاصة عصير يجمع الوطن والمنفى، يخيّل إليّ أنك رجلٌ مشطور من المنتصف، بخط متقطع أحمر، مشروع خارطة حداثية، بأبعادٍ تربو على الثلاث، وفضاءات تربو على الأزل والأزل والأزل، ياه.. من أنت؟

أبلع ريقي كرة أخرى، أسألكَ بصعوبة:

- كويتي ؟!

غريبةٌ كانت.. الابتسامة المعقودة من يمينها، عقوقك يتجلى واضحاً منذها، إذ أنت تتملص من أي هُوية أو ما شابه، منذ أول شفاهٍ فاغرة، منذ أول أرجوحة أطفال تمزّقت بين ذراعيك، تجيب بلغتك أنتَ، الكافرة بالانتماء أبداً، بالأوطان أبداً:

- أنا ضـاري.

قطعاً..

يكفيكَ أن تكون كذلك، إذ لا شيءَ جديرٌ بانتمائك إلا أنت، الأسطورة البدوية التي لا تُروى في الصحراء وإنما.. تحت ظلال أشجار الصنوبر، في مدينة الماء والضوء وكلّ الأشياء التي يستحيل التقاطها، مثلها - أيضاً - تجيء أنت.

تشيرُ إلى البطاقة المعلقة على صدرك، باسمك المكتوب بحروف أجنبية Dhary، أقرؤها : داري!

باسماً .. تهزّ أكتافك بلا اكتراث:

- ناديني داري إن أعجبك الاسم.

حتى كفركَ بالأسماء كان أولَ درسٍ تلقيته على يديك،

حمرة الحرج تعصر وجنتيّ، تصبّ التوّرد الطفيف في ملامحي، تضيف بذات الابتسامة، بصوتٍ يهدهد جزعي:

- ألم يقل نزار قباني «أسخف ما نحمله يا سيدي.. الأسماء ؟»

- أنا بتاعة بيولوجيا.. لا شأن لي بالشعر !

- الشعر كما الوطن والله .. هو للجميع .

خزيٌ باردٌ انتابني، أنا القادمة من قلب نجد، من بطن القصيد، لم أكن محصّنةً بما يكفي من القوافي لكي أجابه هذا الكم من الغربة، وأنت إذ تنفلقُ من رفاه الخضرة الباذخة، ما حاجتك بالشعر إن كان العالم من حولك على هذا القدر من الجمال؟

تقرأ حروف اسمي المكتوب على بطاقة معلقة على قميصي : farah

لست فأرة ! أنا فرح ..

ضحكت، الأسئلة تتدفق من عيني، تجيب قبل أن أطلقها:

- اتصلت بي السفارة لإبلاغي بحضورك.

- و من تكون أنت؟

- أنا ضاري !

لأنك لا تملكُ بطاقة تعريف أخرى، لا شيء سوى تلكم الأعين المشبعة بالحنين، رغما عن البلادة التي تصطعنها إذ تدسّ يديك في جيوبك لكي تواري فيها حماسة الارتعاش.

- طلبوا أن أكون مرشدكِ، لكنهم لم يخبروني بأنكِ فتاة!

- يمكنك أن تتراجع عن المهمة إذا كان ذلك يزعجك.

- في الواقع، الأمر يجعلها أكثر إثارة!

تحتضن يدي يدي، مثل قطط بردى.. تدفن نفسها في بعضها، جرأتك المباغتة كانت كفيلة بِشلّ حواسّي للحظة، وكأنك لا تعي بأن الشفافية على رأس قائمة المحظورات! تجيل نظراتك في جنبات القاعة، تنظر إلى كل وجهٍ من تلك الوجوه بلا استغراق، توزع عينيك بعدالة مفرطة وكأنما لا شيء يثير اهتمامك أكثر من غيره، تسأل:

- هل معك أحد؟

- أستاذي .

- أين هو؟

أشير إليه، يرتشف كأساً خامسة، أو سادسة، حضورك أربك العدّ، تقف إلى جانبه امرأةٌ ترتدي تنورة سوداء بفتحة على الجانبين، لمْ تظهر عليكَ أية رغبة في الاقتراب، ولا أن الكأس في يده تثير فيك أي حفيظة، أردفتَ بعد أن صرفت عينيك عنه :

- سينفصل الطلبة عن الأساتذة .

- لماذا ؟

- لأنهم سيتولون مهمة ترجمة الاختبارات، سيطّلعون على الأسئلة في ليلة ما قبل الاختبار، واتصالهم بالطلبة يعني حدوث غش، لا أحد يراهن على صدق أحد كما ترين.

- هذا جيد، في الحقيقة.. جيدٌ جداً، متى سننفصل؟

- بعد الغداء، هل تريدين محادثته قبل المغادرة؟

- لا، لا داعي لذلك.. ألا ترى كم هو مبتهج؟ لا أريد إزعاجه، لنذهب!

كانت ابتسامةً نزقة تلك التي تمطّت على شفتيك، حملتَ حقيبتي وسبقتني إلى خارج القاعة، فتحت الباب وانتظرتني لأمرّ إلى الخارج إذ تطرحني الأسئلة: أيّ جنونٍ هذا، أن أغادر معكَ .. قبل أن أعرفك؟

أي شيء دفعني إليك بهذه السلاسة، وكأنني أعرفك أبـداً، لتكون (مخلّصي) الذي يأخذني بعيدا عن رطانة الأعاجم ورائحة الخمر في فم أستاذي، وربما.. بعيدا عن الممنوع والمتاح فيما نسميه وطنا، بعيداً عن كلِ شيء، عن الوطن والمنفى في آن.. بعيداً وحسب، حيثُ نعيد بناء الخرائط، والتاريخ، والجغرافيا.

4

- كيف هي الكويت ؟

تسألني، وكأنك تسأل عن صديقٍ تقطعت عنك سُبله، لا ينقصكَ إلا أن تضيف: هل تزوجت ؟ أم أنها ما زالت عزباء معشوقة؟ هل تستقبل الخطاب غير الجديرين بها كالعادة؟ هل ما زالت ساذجة، هذه الأرض، لأنها تشرّع أبوابها للملائكة والشياطين؟ ماذا تصنع.. هذه القدّيسة الآثمة، هل تسيء إليكم وتحبكم؟ هل ما زالت مستعصية على الجميع، تخضعك إلى طقوس الذوبان والانصهار كل يومٍ فما تفتأ أن تهيم بها أكثر، هل ما زالت متناقضة ومستحيلةً، لا تذهب إلى أي مكان وتمشي في جميع الجهات، تروج لحفلات غنائية وتوزع منشورات تحريم المعازف، تشرع أحضانها للجياع في كل العالم إلا في أحضانها، بكتف يرزح تحت عضاتٍ خالدة، وعشاق رائعون لا يجيدون إلا اجترار أشعارهم، علّها تبقى هي، الفاتنة المستحيلة.. كيف هي، هذه الحبيبة؟

- زينة!

أصر أن أجيبك بلفظةٍ مدقعةٍ بالشعبية كتعبيرٍ أوليٍ

عن ولائي، منذ أول حوارٍ خُضناه على الطريق اللولبي المرصوف بالآجر، الذاهب نحو مبنى السكن في فيس.

السويد من حولي ترطن بجمالٍ لا أفقهه، والغربة تتسلل باردة، من الأشجار والغيوم والحلزونات والحصى، ول التفاصيل المتكومة في ثنايا أبسالا، تأتي من كل الزوايا تدبّ كالخدر الطفيف وتملأك بحزن لا تستطيع تبريره، تسألني بفضولٍ مشبوه:

- هل ما زالت مكتبة العجيري أمام مجمع النقرة ؟
- عفواً ؟
- أذكر أنها كانت هناك.
- إنها هناك.

و بعد ترددٍ أكبر :

- أذكر تلك النخلة، النخلة في سوق السالمية القديم.
- نخلة؟ أي نخلة؟

بدأت مرتبكاً، تلعثمت «لا شيء»، فامتدّ هدوء بيننا طويلاً كما الطريق المفضي إلى أبواب السماء، وامتصنا سكونٌ فاتر، شعرتُ بارتباك غريب، إذ بدا الأمر لي مثل جرمٍ أن

نمشي في طريق واحد ونتحدّث ببساطة، ورحتُ أتساءل بسذاجة «ماذا سيقول الناس إذا رأونا معاً ؟!»

تسألني :

- لماذا أنتِ وحدك؟

- كان يفترض أن تحضر زميلةٌ معي، ولكن أهلها رفضوا.

تبتسمُ بخفوت، وكأنني أقرأ في تلك الابتسامة تعبيراً ساخراً مفاده: الكويت لم تتغير! وماذا عني أنا ؟ ألم أقضِ تلك الليلة في طبع قبلات التوسل على رأس جدتي لكي تضغط على أبي ليوافق على حضوري لفرط ما اشتهيت أن أنال شرف المشاركة في الألولمبياد العالمي للأحياء ممسكة بعلم الوطن؟ وكم مرة كان علي أن أستعطف أمي لكي تمنع إخوتي الذكور من عرقلة حلمي، وها أنا الآن.. أمامك، أنثى محظوظة وحسب، محظوظةٌ وحسب !

سألتكَ :

- كم عمرك؟

- كم تتوقعين؟

- ثلاثة وعشرون؟

- ستة وعشرون.

كنت أكبر سناً من أن تكون طالب جامعة، خمّنتُ أنك هنا من أجل شهادة ماجستير، لولا أن كنت حاذقا بما يكفي لكي تفطنَ إليّ، فقلت:

- أنا أعيش هنا منذ إحدى عشرة سنة.

- حقاً؟!

- نعم.

- غريب.

تبتسم دون أن تعلق، أجسر على طرح سؤالي العملاق :

- و لكن لماذا ؟

تعلّق ضاحكاً: يا له من سؤال! وتحكّ قفا رأسكَ.

ألا تبدو مدّة طويلة ؟!

تجيب موارياً مزيداً من الأسباب:

- لنقل إن السويد أفضل من الكويت!

منذ تلك اللحظة، شعرتُ بأنني برفقة رجلٍ معتوه!

5

دفنتُ وجهي في الوسادة، ليس لأن شريكتي في الغرفة تشخر بشكلٍ غريب، وإنما لأطفئ فيّ لهيب لقائنا الأول، أيها الملعونُ الوسيم! ملامحك مصلوبةٌ فوق عينيّ، النوم يتمنّع بلؤم، وغناء الجداجد لا يفتر.. ثمة حشراتٌ كانت جسورة بما يكفي لتقتحم الغرفة من الفتحة الهزيلة في النافذة لكنها لا تلبث أن تغادر بمجرد أن تجد المكان أشد ظلمة، من العبث أن تلوذ بالعتمة من العتمة، ورغم أن الضوءَ محضُ دخيل، إلا أنه الكائن المتطفل الوحيد الذي نحبه!

لا بد أن الطلبة نيام، ولعل بعضهم منهمك في دراسة ما جاء لأجله، وأنا لا أنام ولا أدرس، أحمل جسدي متسائلة من أين له كل هذا الثقل، أترك رأسي يتدلى بإهمال تحت الصنبور، صوتُ البللِ ربما يطغى على ارتطاماتِ هواجسي..

شخيرها مميزٌ فعلاً، «made in china»، أتأملها من بعيد واقفةً في الممر الفاصل بين الحمـام وغرفة نومنا، لم يكن لقاءً

موفقاً ذلك الذي جرى بيني وبينها، ما زلت أتساءل كيف سأناديها، وكيف ستستطيع مناداتي، ما دامت كلتانا عاجزة عن نطق اسم الأخرى بشكلٍ يرضي نرجسيتها.. لمدة ثلاث دقائق كانت تحاول أن تلقنني طريقة نطق اسمها:

- شاونغ أوو.
- شاونغ أوو!
- نو! شاونغ أوو.
- أوو؟
- أووو!

إنها لا ترضى أبـداً! عليك أن تميل بشفتك بالزاوية الصحيحة لكي تأتي بالواو مكسورة بشكلٍ يرضيها، لم تكن هي أفضل حالاً مني، ولكنني كنتُ قد بدأت أردد مثلكَ « أسخف ما نحمله يا سيدي.. الأسماء »، فهززتُ رأسي ضاحكة:

- يس .. فارا !

وأنا أوقدُ في ذهني قبسَ لقائنا الأول..

رأسي ما زال متدلياً تحت الصنبور في بوحٍ شديد الخصوصية، أملأ كفيّ بالماءِ، أغمر به ملامحي للمرة الرابعة، ثم أرتمي فوق السرير، المياه تقطر من أطراف شعري وأذنيّ، أغمض عينيّ وأتحاشى التفكير، حمى تشحذ فيّ رغبة في التقيؤ، يبدو أنني لا أستطيع التوازن خارج الوطن، يتقوض المكان، تتداخل مفاصله، يبقى الصمت كي أضيع فيه.. وشخيرها الفريد.

أدفن رأسي في ساعديَ إيغالاً في الأسودِ، نصف يوم بدا حافلاً أكثر مما يجب، وفود كثيرة مهووسة بالتعارف والمصافحة وتبادل التذكارات والعملات النقدية، لم أحسب حساب هذا، ما معناه على أي حال؟

لم أملك ما أعطيه لها بدلاً للعملةِ الصينية التي وضعتها بين يدي، كان في جيبي دينار كويتي مهترئ دسسته في يدها وأنا أتأمل - بتلذذٍ آثمٍ - الذعر الطافح من عينيها، اللعينة.. بدت سعيدة ! تتفحص النقوش الخفية في طيّات ديناري، أرفعه باتجاه الضوء لأريها النسر فيها وراء الورق، أعبئ

صدري بإعجابها السافر إذ أسمعها تتمتمُ :

- نايس !

نجلس قبالة بعضنا متحاشيتين مناداة بعضنا باسمينا، أشير إلى معالم الكويت وسفنها على سطح الدينار، أخرجت بدورها من حقيبتها قلادة غريبة رسمت عليها نقوش قردة وفيلة، لكلمتيّ فيل ومنصب رفيع لفظ واحد في الصينية «شيانغ» ولكلمتي قرد وأرستقراطية لفظ «هو» كما فهمت منها، ثم قالت وقد ارتسمت على وجهها دلائل الخشوع:

- إذا ارتديتها ستكونين محمية.

أنظرُ إليها ببلاهة، يا لها من مخلوقة لطيفة !

- ثانك يو !

أميلُ برأسي قليلاً، هكذا رأيتهم يفعلون في التلفزيون، ولا شيء يشجع للاستمرار في حوارٍ متحشرج كهذا، بدا لي أن هناك القليل ليقال بين الكويت والصين.. مع فارق التوقيت!

6

ربّاه !

أيّ شيءٍ تصنعه هذه الموسيقى فيّ، الأهازيج الآتية من أرياف السويد، والفتيات الصغيرات كثغر البنفسج يتراقصن على المسرح، نتلصص من ثقوب الأبواب.. أنا مع فضوليي الطلبة، أكداس الطلبة خارج القاعة تنتظرُ الدخول ليتسنى لكل وفدٍ أن يقفَ على المسرح لدقائق، لتصدحَ حنجرته بالنشيد الوطنيّ، ويحيي الجمهور من نخبة العلماء القادمين من أقاصي العالم لمباركة حضور الطلبة، الوفود مكونة من ثلاثة مشاركين على الأقل، وأنا المتساقطة خوفاً لا أعرف من أين سآتي بصوتٍ يليق (بكويْتي) الصغيرة، من أين لي بصوتِ النهام ينشد الـ«يا مال» فارعة القامة، من أين سآتي بروح الرمل والنوير والنوارس لكي أرقع بحة صوتي بزغاريد تطرق أبواب السماء؟

و أنت الواقفُ بعد خطواتٍ مني، لا يسعني إلا أن أقابل ذراعيك المتشابكتين بالكره، لا شيء يعنيك، القاعة الضاجة

بالقوميات/ الانتماءات/ الأعلام مختلفٌ ألوانها، أسألك بحنق لا أجهدُ لإخفائه:

- لماذا لم تجد السفارة من هو أكثر منكَ اهتماماً ليكون مرشدي ؟!

- أنا آسف لخيبتك .

لم تكن مستعدا لتبدي تعاطفاً أكثر، أو لتغير من حدّة اللا مبالاة السافرة التي تقابل بها كل ما يعنيني في الصميم، أشيح عنك، تخرج سيجارة من جيبك وتبدأ بإشعالها قائلاً :

- لو كنتِ في ستوكهولم لكان الأمر أسهل، لكن أبسالا مدينةٌ نائية، يندر أن تقابلي هنا من يتحدث العربية.

- أتساءل فقط.. كم دفعوا لك لكي توافق على هذه المهمة !

ابتسمتَ وأنت تثبت السيجارة بشفتيك :

- لم يدفعوا شيئاً .

- لماذا وافقت إذا ؟

- أنتِ تكثرين من الكلام.. انتبهي، سيحين دوركِ بعد وفد كوريا.

- يا إلهي!

ابتسمتَ، ما زالت يدك تختبئ في جيبك بانكفاء، تخبرني - بوضوحٍ كافٍ - بأنك غير معنيّ إلا بنفسك، الرعب في عينيّ فاضح وفاضح..

- هل ستدخل معي ؟

- و أغني على المسرح ؟

- سأدفع لك !

- النقودُ أثمن من الوطنية بكثير .

- لا أستطيع أن أغني وحدي.

- و ماذا يفترَضُ بي أن أفعل؟

- قف بجانبي فقط!

أفترت شفتاك عن ابتسامة غامضة، وسألت:

- هل صوتكِ جميل ؟

فيما كنتُ ألعنك في باطني وأتساءل: لماذا أصبر عليك؟

دخل وفدُ إيران إلى القاعة، الاستجداء في عينيّ يتضاعف، والرعب - أيضاً - فاضحٌ وفاضح..

- أرجوك!

- طيب..

و هكذا كنا، ثنائيّ التناقضّ الفج، منتصبيْن على المسرح بذبولٍ وبلاهة، نرطنُ بافتعال:

«وطني الكويت سلمتَ للمجدِ

و على جبينكَ طالعُ السعدِ

وطني الكويت

وطني الكويت

وطني الكويت سلمتَ للمجدِ»

الخجل يتقاطرُ من محيّاي حبات عرقٍ وحمرة، أختلس النظرَ إليك، ناشزيْن وشاحبيْن، لا يجمع بيننا إلا بصمات القمحِ على جلودنا، وأعينٌ تحدّق إلى اللا مكان، التشابه النشازُ

يقف عارياً أمام العالم إذ يمعن في تأمل المشهد الأكثر غرابة، الصورة الشعرية الأكفر فداحة، الأكثر حداثة! الغربة تتناسل فيّ، تنسخ نفسها كخلايا تنشطر بمبالغة، العبرات تطفر من عينيّ إذ أسمعكَ تلوك نشيدنا الوطني ببلادة وكأنما الأمر لا يحرك فيك أي نوعٍ من المشاعر، القاعة خاليةٌ إلا منك، لا أحد يعنيك، لا شيءَ يهمك، حتى الكلمات التي ترددها لا تمثّلُ لك شيئاً، ربما كنت تغني لمجرد أنك معجب بصوتك - الرخيم جداً بالمناسبة ! - ولو طلبتُ منك مثلاً أن تغني النشيد الوطني للنيجر أو النرويج لما اعترضت! أنا المرتجفة هلعاً أكاد أقع، أكاد أتشبث بك وألعنك وأبكي، أي شيءٍ شنيع صنعه لك الوطن لكي تقابله بكل هذا الخمود؟

نتزل من المنصة، أمنيتي الأعظم أن أختفي من الوجود، تبتسم للجموع، تضيف باسماً :

- صوتكِ جميل.

7

بقي يومان على موعد الاختبار العملي، ويومٌ آخر للاختبار النظري، اللجنة المشرفة تنظم لجموع الطلبة رحلاتٍ إلى المتاحفِ والكنائس للتعرف على معالم السويد التاريخية، هناك الكثير ليقال عن مدينة صغيرة مثل أبسالا، وبالنسبة إليك، كنت تغلفُ نفاد صبرك بالنكات اللاذعة، تصرّفتَ وكأن ما حولك بلاءٌ أنزله الله بك، لا كأنني أنا المتورطة برجلٍ يحمل كل هذه الشكوك الهائجة مغلفةً بقشرةٍ بليدة.

البدين الواقف بعيداً بين جموعٍ متكدسةٍ من الطلبة يلقي محاضرةً ما، وسط حديقة الأعشاب الطبية، تحت شجرة عملاقة، يضع باروكة بشعرٍ أبيَض ملفوف، ويرتدي بذلة حمراء تعود إلى عصورٍ منقرضة، البنطلون القصير الذي يصل إلى نصفِ الساقِ، والجورب الأبيض الخفيف يكشف دقة الساقين مقارنةً بضخامة البطن، يقال بأن هذا كان شكله، «لينيه»، أشهر شخصية في أبسالا، وأشهر عالمٍ بالتصنيف في العالم.

معيبٌ أن أكون هنا من أجل مسابقة أحياء وأجهل هذا

الـ«لينيه»! ما الذي كنتُ أدرسه إذًا طوال عامين؟ بدأت خواطري تتواتر عما دسّه الأستاذ بخبثٍ من ارتيابٍ حول قدرتي على تقديم الاختبار، الجميع ينصتونَ إلى المحاضرة ويهزون رؤوسهم، يبدون كأنهم يتلقون معلوماتٍ يألفونها، وحدي أضيع في اللا أدري، يتضمخ وجهي عرقاً، أحاول - عبثاً - أن أهز رأسي مثلهم.

استهل حديثه قائلاً :

- أحمل لكم نبأً سيئاً..

الأسئلة تطفح من وجوهنا بقلق، يضيف بذات النبرة الكئيبة:

- في عام 1778 .. أنا متّ!

ضج المكان بالضحك، قدرته البارعة على تمثيل دور الشبح الهارب من قبر العالمِ الراحل جعلت الحديث شيقاً، بدأ خطابه يزداد صعوبة بالنسبة إلى هزال إنجليزيتي.. سألتكَ بشغف:

- ماذا يقول؟ ماذا يقول ؟

- هل يهمّك حقاً أن تعرفي ما يقوله ؟

- أليس هذا عملك.. الترجمة ؟

- ستكون آخر مرة أوافق فيها على مهمة كهذه.. أن تلغي نفسكَ من الخارطة لتمجّد أقوال الآخرين كما لو أنها نصٌّ مقدّس، المشكلة أن بوسعي أن أحدّثكِ عمّا هو أمتع!

- لا شكراً.

يا لقدرتك الرائعة على الحذلقة! البغيضة أبداً، المتعالية أبداً، المستغلة بشراهةٍ متناهية سذاجة حواسي وبدائية خبرتي، وتفتحي الأوّل الوشيك، أكرهك كل مرة تتعمد أن تتحدث بتلك اللغة التي لا أفهمها، بدت مفارقة ساخرة، أن تكون الوحيد الذي يتحدث لغتي وآخر شخص أفهمه، آخر شخصٍ أتحسس معه جغرافيا مشتركة، هذا الوطن الذي أتينا منه بفارق أحد عشرة سنة يبدو آتيا من العدم، وكأنه لم يكن يوماً، كنتَ القريب الأكثر بعداً، البعيد الأكثر قرباً، كنت جالية من الطلاسم المغرورة.

- يقول إنه الشبح المزعوم، كارل لينيه، مؤسس علم

تصنيف النبات و..ما هذه الكلمة؟ أوجد ثنائية الاسم؟

- فهمت.. وماذا بعد؟

- وتضمّ مدينة أبسالا حديقـة النباتات الخاصة به هذه، كثيرٌ من هذه النباتات استوردها من خارج السويد لكنها الآن جزءٌ من معالم المدينة، اسمعي.. مملٌ الخوض في ذلك..

- ضاري!

- أوف.. طيب! لقد شيّد لينيه هذه الحديقة بنفسه عام 1745 وعاش حياته كلها هنا، أنظري إلى ذلك الدجال يصطنع الحزن، أقسم إنه يفعل ذلك كل يوم! لا يهم، هل ترين ذلك المنزل الصغير هناك في طرف الحديقة؟ هذا منزله . لا أقصد الشبح.. بل أقصد لينيه، لقد تحوّل إلى متحف، أترين ما يمكن أن يلحقهُ المجدُ بكِ؟ سيجعل العالم يقدّس أعواد أسنانكِ وملابسك الداخلية، هل قطعتِ كل هذه المسافة من أجل ذلك؟

- إنّك تفوّت الكثير مما يقول..

- اسمعي.. لا تبحثي عن المجدِ الآن، خصوصاً أنك تأتين من عالمٍ طحنته العروبة، لا تتصوري لوهلة أن ثمة شخصاً يقال له «عظيم» إلا إذا ما تحول إلى «عظام» في تلك البقعة من العالم، لكن في الإنجليزية كلمة «great» مثلاً لا علاقة لها بكلمة «bones».. هل ترين؟ هل يهمك أن تكوني عظيمة وأنت ممددة تحت الأرض مع آلاف الديدان؟

- كفى!

- حاضر! حاضر! هل يهمّك أن تعرفي كم مرة ذهبت جائزة نوبل إلى رجلٍ سويدي؟ هل يهمك ذلك لأجل الله؟ هل تريدين أن تعرفي بكم سنة ضوئية تقفين أنتِ في المؤخرة بين هذا الزحام ؟ تسع وعشرون مرة.. هل تعرفين كم مرة ذهبت جائزة نوبل إلى رجلٍ عربي؟ أنا سأخبرك .. مرة واحدة، إلى نجيب محفوظ.

- و أحمد زويل ؟

- غيرُ محسوبٍ على العرب، لأنه أمريكي.

غصةٌ ضخمة تتحشرجُ في حلقي.. تذوبُ علقماً، أشيح عنك كمن تحاول مواراة عورة، لاسيما وأنت تتحدث بلا انتماء تجاه من يفترض أنك واحدٌ منهم، ما الذي يعنيه هذا الذي تقوله، وكأنك تتنصل من كل ما يتعلق بي وتكتفي أن تشير إليّ بسبابة ضخمة وتكيلُ التهم المبطنة؟

تشعل سيجارةً أخرى وتثقبني بعينيك، وكأنك تتكهن بالانشطارات الموجعة في داخلي، اللا فهم التام والعميق والشامل، اللا فهم الذي يشلّ قدرتك على التفكير، في لحظة يتجلى فيها العالم خلاف كل ما تفترضه ذهنيتك، خلاف كل توقعاتك، خلاف كل ما بوسعك أن تؤمن به، خلاف الإيمان والولاء والوفاء، كل المشاعر الجميلة التي لا تحتاج إلى تبرير، مالها تبدو معك ضربا من الغباء؟

تبتسمُ مشفقاً، تهز رأسك هزة أسى وكأنك تشعر بالندم لما قلته، بالألم لما تفعله، بمرارةٍ مبطنة وكثيرٍ من الدجل تحاول أن ترمم هذا الذي ارتعشَ فيّ بذعر، تردفُ قائلاً:

- لا تبتئسي، العالم ينبغي أن يدرك أن هذه الجوائز لا

تضيف إبداعاً.. ألم تخترع الجائزة أصلا تكفيراً عن خطيئة الديناميت؟ إن كل ما يفعلونه ببساطة هو أنهم ينتقونَ اسماً ويباركونه بالشهرة ليقولوا للبشرية: هل ترون أيها الناس؟ نحن نكافئ المبدعين لكي يعوضوا العالم عن الموت الكثير الذي سببناه، نحن لسنا بذات السوء وسنموت بضمائر مرتاحة، إننا نبارككم ونبارك فنونكم وعلومكم.. ونبارك فناءكم! نوبل للسلام!

- أنا لا أفهم شيئاً.

- جيد.

كنتُ أتآكل، أتقزمُ أمامك، تدوي فيّ رغبة بمغادرة المكان، أرض الله ستكون واسعة حيثما لا تكون أنت.. تحاصرني بهذا الشكل المطبق، ليس بجهلي فقط، ولا بثقافتك، ولا بحقيقة تستميتُ لإثباتها كوني أجيء من البقعة الإقليمية الأكثر سقوطاً، بل لأنه لم يكن ثمة التقاء بيننا، وهو ما يجعل الغربة تتكاثر مثل حشد نملٍ مسعور، يغورُ في مساماتي لأجأر بكل آلامي صامتة.

لا أكاد ألتقطُ ما يقال، وأنت - ولعلك شعرتَ بي - بدأت تترجم ما تسمع على الفور:

- في العهد البرونزي اعتبرت أبسالا أهم مدن السويد، بسبب وجود الكنيسة، بالإضافة إلى قصر الملك، كما أنها كانت نشيطة تجارياً من خلال بحر البلطيق، أترين هناك؟ تلك القامة الشاهقة للكاتدرائية؟ هنا كانت تجري حفلات التتويج للملوك، ستجدين أيضاً نصباً تذكارية لرجالٍ شاركوا في شنّ غارات على إنجلترا..
- هل دارت حربٌ بين السويد وإنجلترا؟
- في زمنٍ كانت المعارك فيه أكثر وضوحاً، انتبهي! يقول بأن هذه الكاتدرائية الضخمة بنيت بعد أن حرقت الكنيسة في أبسالا القديمة، فغادر رئيس الأساقفة إلى هنا، حتى وقتٍ قريب كان الأساقفة يتمتعون بهيبة خاصة وشيء من السلطة رغم أن غالبية الأهالي ليسوا مرتبطين بالمسيحية كدين بقدر ما هي طقسٌ اجتماعي، هل تعرفين بأن الكنيسة فصلت عن الدولة مؤخراً جداً؟ في عام 1996؟ يقولُ أيضاً بأن رئيس الأساقفة يعقوب ألفسون Jacob Ulfsson هو من أسس جامعة أبسالا عام 1477، ماذا كان الناس يصنعون في الكويت في ذلك الوقت يا فأرة ؟

- لم يكن هناك «كويت» وقتها، لأنها وجدت كدولة في منتصف القرن الثامن عشر.

- ممتاز يا فأرة، اسمعي.. إنه يتحدث عن قلعة «فازا»، ربما ينبغي أن آخذكِ إلى هناك، ستحبين المكان، كان يقطنها الملك إيريك السادس عشر الذي تسبب في كثير من جرائم القتل، أترين.. حتى البلدان المتحضرةَ خاضت في الجماجم لمرحلةٍ ما، هذا يجعل العرب في طورِ التأسيس! يقال بأن إيريك كان مجنوناً، لكنني لا أظن بأن المجرمين العرب مجانين.. مجرد حثالة لا أكثر، لقد أدى خباله إلى عصيانٍ مسلّح عام 1574، ولكنه انتهى بالفشل وبقاء المجنون على العرش، عاش لثلاث سنوات ثم قتل مسموماً بحساء البازلاء، قصة طريفة، لماذا لا نستطيع تسميم دكتاتوريي العرب بالبازلاء؟

- لأن البازلاء لا تزرعُ هناك.

- Good shot

8

وكأن الحياة تسخر مني. لم تكن ثمة شرفة أطلّ منها على الكويت إلا من خلالك، أنت الذي ما فتئت تنتهز أي فرصةٍ لتسدد طعنة أخرى لقدسية الوطن، تجيء بالشكوك فوق الشكوك، تلقي بها في حجري لتتأمل - بتشفٍّ كافٍ - مصرع ثوابتي، بهذه البساطة أختصِر لقاءنا، أيامٌ سبعةٌ كانت كافية لتغير منحى حياتي، لتصنع مني هذه التي تكتب عن نفسها - بعد مضيّ كل هذا الوقت - بشعورٍ فادح بالغربة.

بدت الحياة كحلم، فماذا يعني - يا هذا العالم - أن أجلس على ضفة بحيرة باذخة الزرقة، تنعكسُ على أديمها ملامح السحاب، متربعة على سجادة عشب رطيب، وبجانبي بدويٌ لا أعرفه، ودلة قهوة عربية وفناجين، وكأنك تأبى إلا أن تشير إلى هويتنا المعطوبة، الهوية التي تنكرتَ لها بجفاء، ولكنها تسكنك بوله..

أرتشفها على مهل، أسافر في سمرة جسدها حيث تستيقظ التفاصيل في الذاكرة: رائحة الحناء ودهن العود

والبنيّات يرقصن على أهازيج سناء الخراز وشادي الخليج، القهوة تصنع كل هذا، القهوة أفضل سفيرٍ للوطن.

- إنها ممتازة!

أهتفُ فيك، تلمع عينك كطفل، تعبئ صدرك بالغبطة وتردف بحماسة:

- في المرة القادمة سأحضّر طبقاً من «صب القفشة» وكل ما تريدين، بوسعي أن أجعل زيارتك أكثر متعة لو أنك فقط تكفّين عن البحلقة في الكتب كالمهووسة.

- الأمر يعني لي أكثر مما لا يعني لك.

بإحباطٍ تتأمل كتاب الأحياءِ يستلقي على ظهره في حجري، كنتُ أقرأ عن الانتحاء الضوئي، وكنتَ تنتف العشبَ بعصبية، تبدو راغباً في الحديث، تقاطعني ساخراً:

- الانتحاء الضوئي؟

- يعني أن تميل النباتات باتجاه الضوء.

- و هل تدرسين الانتحاء العاطفي أيضاً؟

- ضاري!

- لقد درست ذلك في صغري، الزرع يحب الضوء ويزحف إليه على رموش عينيه!

- غير صحيح، الأوكسينات المحفزة للنمو حساسة للضوء مما يجعلها تتجه إلى الظل فيكبر الجانب المعتم على حساب الجانب المضيء..

- آها! الأمر الذي يجعل النبات يميلُ باتجاه الضوء! إن هذا مقنعٌ جداً، ولكنه لا يقنعني، ولو أردتِ رأيي، فإن أي نبتةٍ في الكويت ستفكر بأن تميل باتجاه الضوء فهي معتوهة ومختلة عقلياً وتحتاج إلى جلسات علاج بالكهرباء، لأنها ستتعرض فورا لضربة شمس تودي بها إلى العالم الآخر! هل سمعتِ قط عن دراسة الجدوى؟ يعني أن تشعري بعبثية القراءة عن انتحاء النباتات عن الظل في مكانٍ لا تجدين فيه نباتاً ولا ظلاً! كوني أكثر نزقاً وانظري إلى الأمور كالشعراء وليس كالعلماء، «الشعر نقيض العلم» كما يقول كودلرج!

- كودلرج ؟

- إنه مسئولي في العمل .. [1]

تبتسم بسخرية، أحدق إليكَ بكل ضياع العالم، يتضاعف إحساسي باللا فهم، تلتذّ بكل هذا، تخبطي في السديم، حيث لا شيء مؤكد وكل شيء متحمل، حيث لا تجيء بالحقائق بقدر ما تغرس رؤوس الشكوك المدببة في صدري، وتتأمل عن مسافة كافية عذابَ انتزاعها ورقع ما تخلفه من تشويه، كنتُ أتساءل إلى أين تنوي أن تصل، أنت الذي لا يجيء إلا بأسباب الارتطام الموجعة؟

أسألكَ :

- ضاري..

- عيونه!

- ما الذي تريده؟

تنفلقُ «آهٌ» من صدرك، آهٌ عملاقة وموجوعة، تزفر، ضيق يطبق عليكَ، تحاول أن تكون أكثر حنواً هذه المرة،

---

(1) لاحقاً عرفت بأنه شاعر إنجليزي، وبأنك كنت تسخر مني يا ضاري.

بصوتٍ أكثر خفوتاً :

- فرح يا عزيزتي.. هل أبدو لكِ شريراً؟

أعيدُ السؤال بعناد: ما الذي تريده؟

تتنفس بعمق، وكأنها تحاول دراسة كل حرفٍ تقوله، تسألني محاولاً - بعبث - أن تقلبَ طاولة الأسئلة:

- هل خطر على بالك للحظة بأن كل ما تقومين به مضيعة للوقت؟

- ما الذي تريده؟

- بل ما الذي تريدينه أنتِ؟ أخبريني.. لماذا تدرسين هكذا كما لو أن عفاريت العالم كلها تطاردك؟ من أجل الوطن؟

- طبعاً.

- عظيمٌ جداً، دعينا إذا نفكر بالأمر، لماذا ينبغي أن أرهق نفسي بالتواجد في أرضٍ دون أخرى وأسميها - بكل براءة العالم - وطناً، أنظري حولكِ الآن يا صغيرتي، انظري حولكِ لتري كم هي الأمور هنا

متناهية المثالية، ماذا تريدين أن أسوق من أمثلة؟ القطاع الصحي؟ القطاع التعليمي؟ والعدالة الرائعة توزيع الدخول متجلية في تناسق العمران حيثُ لا قصور فارهة وعمارات تكاد تقع فوق رؤوس قاطنيها، إن الشيء الوحيد الذي تفضل به الكويت هو أنها عامرة بالمساجد، لن أكابر، ولكن ألم يقل نبيّنا «وجُعِلَت ليَ الأرض مَسجداً وطهوراً»؟ عوضاً عن الشتاءِ الطويل المحفز للانتحار.. ولكن بحق الله، هل جعلتنا شمسنا في الكويت أكثر سعادة؟ العالم هنا في أتم ملامح جماله، أنا - يا فأرة - لا أريدُ شيئاً، أنتِ التي تحتاجين إلى الكثير..

أتأملك بارتياب، ألمح ارتباكك إذ أنت تشعل سيجارة أخرى، لأنك مثلي.. تعرف أن ما ذكرته ليس كافياً! لا بدّ من دافعٍ أكثر تجذراً وأكثر وجعاً لكي تبرر رحيلاً بهذه القوة، يستحيلَ أن ترحل لتتواجد في بلدٍ يمنحك خدمات أفضل في الصحة والتعليم، لم نصل لهذه المرحلة بعد، الروحُ العربية العاشقة بالفطرة تتمنطق برؤاها الخاصة تجاه قضايا الانتماء، يمكن أن يحدث ذلك لإنسانٍ غربي يتعامل مع الأمور من

منطلق عقلي محض، لكن تلك البداوة السافرة حتى في الطريقة التي تقبض فيها على الفنجان تنسفُ كل الأسباب - المقنِعة بالمناسبة - التي ترصها أمامي، نحن نفهم بعضنا، نعرف بأننا نحتاج أسباباً أقسى من العقل والمنطق لكي نبرر الهجرة، أسباب أكثر انفعالاً.. أكثر سطوةً وحضوراً.

أجيبك بهدوء:

- إن هذا أسخف منطقٍ أسمعه في حياتي.

- على الأقل.. أنتِ تقرّين له بالمنطقية!

- هل أنتَ رجلٌ آليٌ يا ضاري؟ ألا تعرف معنى الحب؟

- لنفرّق - لأجل الله - بين الحبّ والغباء!

- لا، اسمعني.. إنك لا تسمع إلا نفسك، أنا أقصدُ الحب، الحبّ الذي يبرر أن تحب شيئاً معيناً دون غيره، ليس لأنه الأجمل ولا لأنه الأفضل، ولكن لأنك تحبه فهو في الأجمل والأفضل، السويد جميلة وليست الكويت بهذا الجمال، ولكنها في نظري أجمل لأنها وطني، هل تفهم؟ هل بوسع أي أحد.. أي

أحد.. أن يكون بليداً لدرجة إجراء مفاضلة ساذجة بين وطنٍ ومنفى؟ هل بلغنا من الافتتان بالغربِ إلى هذا الحد؟!

- الافتتانِ بالغرب؟!

ضحكتَ مذهولاً، قهقهاتك تتواتر، هل كان توظيفي للمصطلح الذي سرقته من أبي خاطئاً يا ترى؟ يا للمصيبة، يبدو أنني اندفعتُ أكثر مما تستوعبه طاقتي للمناقشة!

- يا إلهي، من اللطيفِ حقاً أن أسمع رأياً كهذا بعد إحدى عشرةَ سنة!

- لا تتحدث معي!

أشحتُ عنك، عبثاً ألاحقُ الأسطر، أردتُ بكاءً مراً، ابتسمتَ بدورك ومسحت على كتفي، سرت رعشة بيننا، وتساءلتُ من أين تتولد كل هذه الكهرباء بيني وبينك وأنا في أشدّ حالاتي كرهاً لك؟ أي شيءٍ يجعلني - يا ترى - أرتجفُ لمجرد التفكير بكفك على كتفي مرة أخرى؟

تحنّطتُ مكاني، تحاشيتُ أن ألتفت، جاء صوتك موجوعاً، بكثيرٍ من المرارة:

- أنتِ تنبشين فيّ بذكاءٍ لا يوحي به منظركِ، لكن إذا أردتِ نصيحتي.. لا تبحثي عن الأسباب ما لم تكن جميلة، وأنا لا أحملُ لكِ أسباباً من هذا النوع، يستحسن أن تعودي للقراءة.

تنتفضُ فيِ في صدري الأسئلة والدموع، كيف بوسعك أن تقول شيئاً كهذا عن الوطن؟ أليست الكويت هي أفضل وأروع مكانٍ في هذا العالم؟ ماذا تعرف أنت عن الكويت؟ إنك لم تحبها، لم تهتف في ساحة العلم وتتسلق الصارية لكي تعلق علما بأربع ألوان وتصرخ: بالروح بالدم نفديك يالكويت! لم تحمل سلاحاً لتقتتل مع جندي عربي مسلم جاء يغتصب أرضك ويعيث فيها جوراً تحت شعار (قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق) وتحرير القدس! لم تجرب أن تنام في سرداب تهدهدك المدافع وأصوات «الله أكبر» تصدح من مآذن الكويت، لم تجرب كل هذا.. ربما.. كل ما كان تفعله.. هو أن تلصق أذنيك بالراديو وتسترق بعض الأخبار، هل كنت تسمعها بالعربية أم بالسويدية؟

9

موعـد الاختبار العمليّ بعد ساعتين، أنا وأنت جالسيْن في مؤخرة الباص، نخترقُ طرقاً مفروشةً بالأخضر، موشاةً بالسنديان، وسماء أبسالا تزخر بالبياض الشفيفِ، أراجعُ ما قضيت ليلة الأمس في قراءته، تلتفتُ إليّ وتسأل بقلقٍ لا تكابر لإخفائه هذه المرة:

- هل أكلتِ شيئا؟

- لا أشتهي.

أردتُ أن أثبت لك ذلك اليوم - بكل ما تحمله فتاة الثمانية عشر من قدرة خارقة على الحلم - بأن ثمة حب يستحق أن نرهق أرواحنا من أجله، وأن الكويت هي ذلك الحب.

أخرجت من جيبك قطعة بسكويت ووضعتها في حجري:

- كلي.

- لستُ جائعة.

- كلي!

لم تضيع وقتك بمزيد من الكلام، لأنني امتثلت لأوامر بدت لي لحظتها مدفوعة بحبّ خفيّ.

- كُلي!

الباصُ يخترقُ حقولَ الذرة، ممتدة كسجادة ضوء، أسرح في ملامح عاميْن من الكدح لأجل أن أكون في مكاني هذا.. وكأنني بي هناك أجوب أزقة الجامعة حاملة كتباً بسماكة الطوب، أتلقى دروسا إضافية في عطل الأسبوع، وأحضر محاضرات الأحياء على أيدي الدكاترة وموجهي وزارة التربية والتعليم، عامٌ من الدراسة المكثفة كان ثمن الميدالية الذهبية التي حصلت عليها في الأولمبياد الوطني، وعامٌ آخر من الاختبارات والكدح كان ليتم تأهيلي لحضور الأولمبياد الدولي، أليس صعبا أنك تُنسف كل هذه الجهود لأنني أنحدرُ من وطنٍ عربي ؟

حدثتك عن كل هذا، عن المكوث في المدرسة حتى الليل، التحديق في أوراق مكفهرة، صنع شرائح مجهرية،

تشريح ميسم زهرة، قطاع عرضي في غضروف، قطاع طولي في ذبابة، وصراخي الذي غمر المختبرات في درس التشريح الأول للصرصور.

رفعت حاجبيك دهشة :

- شرّحتِ صرصوراً؟

- ألا تصدقني؟

- يا إلهي، أنتِ أنثى مشكوكٌ في أنوثتها!

- لا تكن سخيفاً، كاد يغمي عليّ مراراً، أنا لا أحتمل شواربه.

- اسمعي.. راقبي الفتاة الصينية وحسب، إن كانت بوذية كما تزعم فسيقتضي ذلك أن تسجد للصرصور بصفته روحاً مقدسة وتتمتم باعتذارات «يا صرصوري يا أخي، أنا آسفة حقاً لأن عليّ أن أنزع عنك جناحيك الرائعين، وشاربيك اللذين لم تتنازل وتحلقهما قط، وأقدامك الستة، وقشرة ظهرك السمراء لفرط ما تعشق التمدد تحت الشمس في الليالي الصيفية والتلصص على الصرصورات

الفاتنات بملابس السباحة.. سيكون عليّ أن أضع نهايةً لحياتك البنية الرائعة من أجل العلم، يا صرصوري يا أخي! العلم ينتهك كل المقدسات ولكنه أملنا الوحيد لكي نتفوق على أمريكا!»

انفجرتُ ضاحكة، أقبض على بطني وأتلوى، في حين واصلتَ الحديث على هذا النحو، وأنت تضغط طرفي عينيك بيدك وتضغط صوتك ليجيء كما لو أنه خارجٌ من أنفك، توقفَ الباصُ فجأة، لم نلاحظ أننا اقتربنا كثيراً من قاعة الاختبار، أطبق صمتٌ كثيفُ الملامح على كليْنا، ولأول مرة شعرتُ بارتباكي يتسلل إليك.. كنتَ خائفاً، ولكن لماذا ؟

نهض الطلبة من مقاعدهم واصطفوا في طابور للنزول في الباص، نظرتُ إليك بارتباك، رفعت حاجبك الأيمن وأملتَ برأسكَ نحوهم وكأنك تطالبني بأخذ مكاني الصحيح بينهم، ابتسمتَ، فابتسمتُ بدوري، لم يكن هناك الكثير ليقال، لم تنبس بحرف ولا أي شيءٍ آخر، لكن قبضتك كانت مضمومة بتشنّج لحظة رفعت إبهامكَ إلى أعلى.

10

ما الذي يحدث؟ ثمة خلل! يجب أن يكون هناك خلل! ربما أخطؤوا في توزيع الأوراق، فمن غير الوارد - إطلاقاً - أن يكون ما أقرؤه هنا له علاقة بعلمِ الأحياء! العَرَقُ يتصبب من جبيني، أكوام الهُزال فوق جسدي أثقلَ مما أطيق، وهذا العِرقُ الصغير الذي نفر من إبهامي فجأة، لماذا تراني أراه للمرة الأولى؟

قاعة الاختبارات مطموسة بالبياض، من يسرق الملامح من الأمكنة؟

ينفلق في الصدرِ حزنٌ قارع، وجعٌ يختزل النكات القديمة، النكات التي لم تعد مضحكة، وحدي أنا.. أتبسّم ضاحكةً من قولها. نكتةٌ قديمةٌ جداً، مثولي - للمرة الخيبة - بين أيديهم، لأشرئبّ بعنقي فيعرف الجميع بأنني في المؤخرة، لا لسبب سوى أنني أحمل جلداً بلون الصحراء، ويقع عليّ أن أحمل تبعات أجيالٍ انصرمت في التهاون،

لأكون في وجه المدفع وأتلو « أمّن أسّسَ بُنْيانَه عَلى شفى جُـرفٍ هارٍ فانهارَ به في نـار جهنّم»، أيّ جهنّم.. هذه!

أتراي أنا من تستحق أن تتشدق بقوانين الأحياء من بين هؤلاء، أنا الآتية من مكانٍ لا يتكاثر فيه إلا الجدب؟ وهذا اليونانيّ إلى جانبي يختبئ خلف نظارتيه كجرذٍ ويكتب بشراهة، يقال بأن ما ترجمه العرب منذ عهد المأمون وحتى اليوم يعادل ما تترجمه اليونان في سنةٍ واحدةٍ، ربّاه.. كم هو معيبٌ أن نختبر أنا وهوعلى طاولةٍ واحدة.

سأبتدع علماً يخصني، الأحياء العربية المعدلة، من نجد اللا حياة، صحراء النفط والبشوت، من مكان كهذا بوسعي أن أجيء بقوانين خاصة!

أي حماقة زجّت بي إلى هنا، أجرجر خلفي تاريخاً أكثر سمنة من كبش فداء، قريباً جداً، عندما تُعلن النتائج وأجد نفسي واقفة وراء المؤخرة، وأصدح بموالٍ مشبعٍ بالحنين، سأناديهم جميعاً ليتحلّقوا حولي فأقصّ عليهم سِيرَ الأصمعي وجابر بن حيان، وأتبجح أمامهم بأن تطورهم هو ثمار ذلك الركب البدوي القادم من صحرائي، الديباجة المعتادة، الديباجة إياها.

ليت الوقت يتقلص، أم أنّ عليّ أن أقتل الوقت بطريقتي، كأن أحصي - على سبيل الوجع - قطرات العرق على جبيني، أو أبتدع قصيدة ما، لأنني من شعب لا يشعر بالأمان إلا خلف قضبان القوافي، أو أن أستل قلماً جاف الحلقِ، كالأمل المتخثر في عروقي، وأرسم شيئاً ما، شيئاً أحبه، نخلة طويلة القامة، لوحة الربيع التي حشوا بها رؤوسنا منذ الطفولة، فراشات وأزهار وأكواخ لم أرَ مثلها قبل اليوم.. يا للسُّخف!

يسحبون الورقة من بين يَـدَيّ، وورقة أخرى، أربع اختبارات عملية ينبغي عليّ تقديمها وأنا أكادُ لا أفهم ما أقرأ، ما هو الاختبار الرابع؟ استخلاص السيليلوز من ساق الذرة؟ وهل يمكن ذلك حقاً؟

أرسم دوائر عشوائية حول خيارات الأجوبة، رغم أنه لم يعد يعني لي بأي شكل من الأشكال أن أصيب جوابا صحيحا بالصدفة، وهذا العالم أضخم من أن يوجد بالصدفة! وكذلك النجاحات العظيمة، لا تصنعها الصُدف!

الميكرسكوب إلى جانبي فقد سطوة حضوره، لم يعد يهمني أن أحتوي السمت المميز للعلماء، البالطو الأبيض

والنظارات بإطارٍ أسودٍ يوافق الموضة، وحرف الدال يسبق اسمي كنجمة لامعة على جبين طفل.. لا أريد شيئا من هذا، أريد أمّي!

إيهِ يا وطني! لم يكن مجيئك إلى هنا إلا روتيناً شكلياً، لكي تدون الصور الفوتوغرافية وجود ألوانك الأربعة بين كل هذه الأعلام، أما أنا.. فانتصاري انقضى مذ عبرتُ ذلك الخط الأحمر المتحشرج، ما دمت أعتلف كتباً كتبت عام 1975، ثمّ أحسبُ نفسي - بسذاجة - من أوائل طلبة الأحياء في العالم.

أضغط رأسي بين أصابعي، أبحث عن سؤالٍ واحد، سؤال واحد فقط.. أعرف جوابه، تمتلئ عيناي بالدموع، إنها ورطة حقيقية، حالمةٌ مثلي، تافهةٌ مثلي، تليق بالسقوط أكثر من أي شخصٍ آخر، إيه يا وطني . لماذا أتيت بي إلى هنا؟ هل تكرهني إلى هذا الحد؟

فضائحي - بكل هذا البكاء الصامت - تزدادُ سطوعاً، أمام من اعتاد مرأى الدموع العربية متخضبة بالكحل، أرفع يدي، تقترب مني امرأة طويلة، تسأل بتأثر واضح:

- هل تحتاجين إلى شيء؟

- منديل.

تأتيني بمنديل، تقف على بعد خطوات، أتظاهر بأنني أقرأ الورقة، أضع دوائر اعتباطية حول الأجوبة، تبتعد لخطوات، تنطلق دموعي لتمحو أثر الدوائر، لا يهم.. سأضع دائرة على الجواب الآخر، أعاود الالتفات، أسألها:

- متى أستطيع المغادرة؟

- هل انتهيتِ؟

- نعم.

- متأكدة ؟

- نعم.

- هل قمتِ بالمراجعة؟

- نعم.

- لا بأس، يمكنك الانتظار خارجاً، ريثما يحضر الباص ليقلّ الطلبة إلى المطعم، ستلتقون هناك الأساتذة لتبادل الأخبار عن الاختبار.

ليذهب العالم إلى الجحيم، وأولهم أستاذي! لقد كسب الرهان هو وكل صراصير العالم. آخر ما أحتاج إليه اليوم أن أراه! أخرجُ بخطواتٍ متسارعة، لم أنتظر، أوقفت سيارة أجرة وانطلقت إلى السكن، لا أريد أن أرى الأستاذ، ولا ضاري، ولا شريكتي الصينية، ولا السويد، ولا الكويت، لا أريد أن أرى أحداً، واليومعندما تحاول سليلة هولاكو ملاطفتي بالسؤال: كيف كان الاختبار يا فارا؟ سأجيبها بكل بساطة:

- رااااائع !

لا شيءَ أسهل من أن تضع دائرة على جواب باحتمال 25 ٪ أن يكون صحيحاً!

11

الباب مقفل، أتكوّر في الزاوية، أطلق القطراتِ من حنجرة الصنبور - خافتة مثل أغنية في طور التكوين - لتعزف نشازاً يليق ببكائي/ البكاء الذي لا يجب أن يسمعه أحد، لا ضاري، ولا الصينية التي لا أستطيع نطق اسمها.. أريد أن أتضاءل وأنتهي، مثل فاصلة بين صمتين.

اهدر يا هذا الصوت، فكما نقول نحن « أنا فْـ عرضك ! »، لا يجب أن يسمع العالم نحيبي، اقطر أيها الماء، واللعنة على كل توجيهات ترشيد الاستهلاك، عندهم هنا آلاف البحيرات، فليتدبروا أمرهم.

- فارا ؟

أفتح الباب، البُقع الحمراء فوق جلدي وشاية لبكاءٍ أكبته، تشير إلى الباب وتشرع في التأتأة:

- The man is out

ذا مان؟ لا أعرف هنا رجلاً واحداً، رجلا حقيقياً واحداً باستثناء:

- ضاري ؟

- I don't know

يخفق قلبي بضراوة، أتكئ على الجدران لأبلغ الباب، أتشبث بالمقبض بكل ثقلي، أفتحُ على مهل، أطلّ برأسي، أرتطم بصوتك:

- اخرجي من جحرك يا فرح، لن آكلك!

- خشيتُ أن تكون الأستاذ.

- كوني منصفة فأنا أكثرُ وسامة.

أغادر «جحري»، آثار البكاء تلطخ جلدي، أفتعل ابتسامةً ميتة، تنظرُ إليّ وتبادلني ذات المشاعر البلهاء:

- تعالي معي .

أسير خلفكَ، خافتة مثل شمعة، الطرق المفروشة بالحصى تتلوى مثل حيوانٍ موجوع، والبحيرة بمحاذاة الطرق تودّع زرقتها مع بقايا النهار.

جلسنا على السارية الخشبية، ثمة مغناطيسُ غريب يجعلني أنصاع لكل شيءٍ تقوله، عيناك في عينيّ، عيناي في الماء، حضورك يحاصرني، أعرف ما تنتظره دون أن تجسر على السؤال، وقبل أن تسأل وجدتني أنشج:

- كنتَ على حق.

و تتدحرج دمعةٌ من عينيّ، وأتوحد بصمتٍ كثيف.

تتنهدُ بمرارة، تتحدث بصعوبةٍ بالغة، وبصوتٍ يرتعش:

- فرح، الأمر لا يعني لي أي انتصار!

لم أكن منتبهة لما تقوله، المرارة تتكور في فمي، أبصقها تلك الكلمة:

- وقاحة!

وقاحة فعلاً! هذا ما قلته، وأنت لم تحظَ مني بوصف أقل إبهاماً، فأي وقاحة يمكن أن تحدث في قاعة اختبار؟

- أنتَ لا تفهم، لا تفهم معنى أن تعتلف كتباً طوال عامين ثم يتضح لك أنها تحمل معلومات أكلها

العطب منذ عشرين عاماً، لا تعرف معنى أن تمضي عامين في الكدح ثم تجد نفسك تنخر في القشور في حين أن غيرك ممن أمضى أسبوعين في «معسكر للتدريب» قد سبقك بأشواط، أنت لا تعرف معنى أن تحلم.. تحلم دائماً.. وتقضي حياتك في الحلم ثم تسقط بقوة.. بقوة يا ضاري.. لتجد نفسك في المؤخرة.. حيث المكان مخصص لك وحدك.. بمقاساتك أنت.. لأنك عربيّ .. عربيّ!

«عربي!» أشعر بها لزجةً مثل شتيمة، أدفن وجهي بين كفيّ وأنتحب.

- اهدئي..

- تباً لك! الأمر لا يهمك، ولماذا يهمك؟ أنت تنكرت لكل هذا منذ إحدى عشرة سنة! أنا لستُ غبية يا ضاري، لقد كنت الأولى في المدرسة طوال عمري.. لستُ غبية، ولا أقل من غيري، ولا من الصينية التي تنام عارية وتشخر كالضفادع، كل ما أريده هو فرصة عادلة كالآخرين، كل ما أريده هو تدريبٌ

كفؤ.. هو ماء وجهي، هو .. آآآه! الأمر لا يهمك!

رأسي منكسٌ مثل راية مهزومة، الدموع تفرّ من عيني تباعاً، تسأل وكأنما هذا هو كل ما في الأمر:

- هل تودين ركوب القارب؟

- يجب أن أذهب.

أنهضُ بتثاقل، أنفض الغبار على ذيل قميصي، تبقى أنتَ على السارية، تحدق إلى الماء، شللٌ ما قد أصابك، في عينيك انطفاءٌ كثير.

- لا تذهبي .

- غداً الاختبار النظري .

- عليكِ اللعنة! ألم تتعلمي شيئاً اليوم؟

- يجب أن أذهب.

- لا تفعلي يا مجنونة!

- يجب ذلك.

- غبية!

- تافه!

أوليك ظهري وأمشي، خطواتي تسابقُ بعضها، أمسح أنفي بطرف كمي، أشتمك، يأتيني صوتك مشبعاً بالاستجداء:

- فرح .. سترحلين إلى الكويت بعد أربعة أيام، ألا يعني ذلك لكِ شيئاً؟

- ضاري.. لا أستطيع!

- لا تكوني جبانة! ثقي بي لمرة واحدة، لمرة واحدة فقط، تعرفين أنني على حق، غباء أن تواصلي القتال هكذا يا آنسة دونكيشوت، لماذا تحملين نفسك كل هذا؟ من أجل من؟

- من أجل الوطن.

- أيّ وطن.. عليكِ اللعنة؟

- و ماذا يعرف أمثالك عن الوطن ؟

- أعرف عنه ما يكفي لأكفر به!

- لسوء حظك، أنا مؤمنة جداً.

- مؤمنة بماذا؟ بالصفر المتورّم الذي ستحرزينه غداً!

- أنا أحب وطني.

- أنا لا أريد علاقة من طرف واحد كهذه!

أزفر مذعنة، أجلسُ إلى جوارك، على طرفِ زلقٍ لصخرة، راحة خفية تسللت إليّ مشوبة بالشكوك، ترى.. هل صحيح ما تقول؟

كل أوجاع النهار تستفيق في باطني، الوطن الذي يمدد قدميه بين فاصلة ونقطة، الوطن الذي خذلني اليوم، يخربش جدران صدري من جديد، دون أن يمنحني أجوبة مقنعة، أو دفئاً يكفي. أنظرُ إليكَ باستجداء، يا آخر الأشياء الراسخة في عالمي، تكرر، هذه المرة وأنت تضغط على الحروف بقوة:

- ثقي بي.

أستنشقُ الكثير من الهواء، أضيف باسمة:

- You're the man!

12

اليوم الرابع/ يومُ تمرّدي الأول، فلـول الطلبة تغادر فيس، تركب الباصات باتجاه قاعة الاختبار، وحدي أتقلب تحت اللحاف، أتأملها تستبدل ملابسها على عجلٍ وتنصرف غير مكترثة بإيقاظي، أتظاهر بالنوم، أخيطَ رموشي ببعضها، لا أريد أن أفتح عينيّ، القلق يحتشدُ في أطرافي، أستجمع شتات قسماتك، أردد كتعويذة «ثقي بي!»، وأذوب انصياعاً بين يديك، يا بقية إيمانٍ وحبّ! يخيّم الصمتُ في جنبات السّكن، أزيز الباصات المغادرة يتلاشى، أطمر رأسي بالوسائد، أبكي بذعر، ما الذي أفعله يا إلهي؟

أبعثر حروف اسمك – تميمة شغف – إذ يخترقون جدران الصدر، يجرجرون خطىً مثقلة وملامح يعلوها الانطفاء، وجوههم تجيء تترى: الأستاذ/ أبي/ مدرّسة الأحياء/ شلة الثانوية/ أمـي، الجمعُ الذي يراهنُ عليّ في قاعة اختبار عملاقة، كل هؤلاء.. أخذلهم الآن لأنتصر لي، أو لأنتقم لي.

أي حماقة ؟ أحقاً أنني أتمرد على ما سمّيته «وقاحة وطن»

أم أنني مجرد مراهقة مفتونة برجل طاغية؟ هل الحقيقة أنني أرفض المثول بين يدي عارٍ لم أحسب حسابه؟ أم تراني عاشقة وحسب، لا تريد أن تضيع وقتها في ملاحقة أوراق الاختبار فيما هي مغادرة هذه الأرض إلى الأبد بعد أيام قلائل، لتترك خلفها هذا الذي استلّها من عالمها بضراوة؟

يا للأسئلة.. ينسخ بعضها بعضاً، حتى إذا ما أطلقنا سراحها وجدنا عُرينا أكثر سطوعاً، علامات الاستفهام فضائح صغيرة، حيث كل الاحتمالات واردة، كل الأجوبة محتملة، كلها صحيحة، كلها خاطئة، وحدي أتخبط في البكاء.

صراخ ضميري يتعالى، أركض إلى الحمام وأتقيأ، يخرج القيء دموعاً وطعاماً لا أذكر أنني أكلته، يا فأرة البيولوجيا، فسري لي هذا القيء إن استطعتِ! أتشبث بالجدران الشاحبة، أرتمي فوق سريري، أكاد أرى وجوههم المقطبة تحدق في الأوراق، أسمع صريرَ الأقلام على الورق تسطر مجداً ومصائر، لا أشم إلا القيء، ولا أرى إلا هلام ضوء وأشباح ظهيرة، ولا أسمع إلا.. صوتك ؟!

- يا فأرة ! هل أنتِ في الداخل؟

طرقاتك على الباب ضارية جسورة، أجيبك:

- أريد أن أنام!

- لا أصدق ما أسمع! دودة الكتب تتجاهل اختباراً تغطيه كافة وكالات الأنباء العالمية لتنام.. هيه، كوني أكثر مسؤولية! هذا اليوم لي!

أفتح الباب، مشاعر متناقضة تطارح بعضها فيّ، تنظر إليّ ذاهلاً، ظلال العتمة حول عينيّ، والعروق التي تفجّرت تحت جلدي لتعبئ بشرتي بنمشٍ يتزاحم هلعاً..

- يا إلهي !

تهمس مذعوراً، وأعرف بأن لك إلهاً مثلنا!

- تبدين مرعبة!

- هذا بسبب القيء.

- لا يهم، بدّلي ملابسكِ، ستأتين معي اليوم، مريضة أم لا.

غادرت وأغلقت الباب، استبدلتُ ملابسي على عجلٍ وخرجتُ إليك، أرزحُ تحت أكوام المعاطف، بوادر الحمى تعتريني والزكام، محصنة بما يكفي من المناديل.

كانت سيارتك الصغيرة الحمراء تركن أمام حديقة

السكن، لم تكن لتضيع مزيداً من الوقت، وسرعان ما انطلقتَ بي في أول رحلة تضمنا وحدنا، مضت نصف ساعة لا يزعج هدوءها إلا عطساتي، وضجيج قلقي، نظرتُ حولي بتوجس، راودني هاجسٌ آثم، فأسررتُ لك:

- ضاري؟

- يا[1]؟

- أشعر بأنني أقترف جرماً ما.

- من قال عكس ذلك؟

قلتَها هازئاً ثم غمزت بعينك، صحتُ فيك:

- تباً لك يا ضاري، أريد النزول!

- ني![2]

- قلتُ لك أريد النزول!

- ني!

قرأتَ الذعر في عينيّ لحظتها، أطلقتَ ضحكة مجلجلة،

---

(1) لفظة « يا » في اللغة السويدية تعني « نعم »

(2) ني تعني لا بالسويدية .

تزلزلت أركاني، ملايين الهواجس جالت في رأسي، تذكرتُ أمي، كانت تحدثني كثيراً عن رجالٍ يختطفون العذراوات ويوسعونهن..

- كفاكِ سخفاً! هل تظنين حقاً بأنني سأفترسكِ؟

أوقفت محرك السيارة على جانب الطريق وسألتَ بغضب:

- ماذا تريدين الآن ؟

عضضتُ شفتيّ حرجاً، لم أعرف بمَ أجيبك، سألتك بتلعثم:

- أين نحن ذاهبان ؟

- من المفترض أن تكون مفاجأة!

قلتها بصوت ساخط، ثم فتحت باب السيارة ونزلت، كنتُ بصدد أن أستوقفك وأعتذِر، ولكنني أحجمت جبناً عندما رأيت النقم على محيّاك، فتحتَ باب السيارة الخلفي، تناولتَ منه طبقاً مغلفاً بالقصدير ثم عُدتَ للركوب بجانبي، وضعت الطبق في حجري بحرص، أزلتُ غطاء القصدير متسائلة، كان يحمل حلوى «صب القفشة»، قلتَ بنبرة ساكنة:

- أعددتها لكِ هذا الصباح .

تذوقتُ واحدة، شرابها الحلو يغمر فمي بترف، أردفت بفمٍ ممتلئ:

- إنها ممتازة!

- أخبرتكِ بأنني لم أفقد لياقتي.

- كيف تقول «شكراً جزيلاً» بالسويدية؟

- تاك سيماكا.

- تاك سي ي .. ي .. ما ..

- قولي «تكسي مكة» وخلاص!

تكسي مكة؟ أهكذا تتدبر أمرك هنا؟ بافتعال علاقة وهمية بين ما هو سويدي وجميل، وما هو عربيّ وحزين؟ تفتش عن العروبة في مخ غربتك، في العشب النابت بين الصخور، في استذكار النخيل أمام كلّ عمود إنارة في الشارع؟ عبثاً تقنعني - بهذا الحزن المبطن سخرية لاذعة - بأنك تحب وجودك هنا، عبثاً تجعلني أصدّق بأنك لا تموتُ كل يومٍ ألف مرة مختنقاً بالهواء النقيّ لأبسالا، لأن قيظ الكويت شيءٌ من تكوينك، أحدق إليكَ شاخصة، حزنك يتخذ أبعاداً جديدة، يتشكل هالة عتمة تحاول تبديدها كل يوم بالنكات التي تفتعل،

يضحك عليك العالم، وتبكي في داخلك.. انتصارك الأوحد أن لا أحد غيرك يسمع هذا البكاء.

الشيء الذي لم أفهمه قط.. كيف يمكن لبدوي أن يعيش حياة تسودها الخضرة والترتيب والترف، كيف يمكن أن تتحمل السير في الشوارع دون أن تبصق مثلاً، أو تلفظ علكاً، أو تدخن غير مكترثٍ بشارات (ممنوع التدخين)؟ أو أن تتجاوز إشارةً حمراء، أو تشتم رجلاً ارتطمت بكتفه، أو تتبول في مواقف السيارات، أو تدخل حماماً عمومياً لترى أقبح الشتائم تسيل على جدرانه، أو ترى أسوار الحضانات ملطخة بعبارات مثل يعيش نادي العربي! الجنون العربي، الحلم العربي، الحزن العربي، ماذا فعل بك الوطن كي تنزعه عنك بهذه القسوة، وتعيش مضمخاً بالوحشة والغياب؟

تسألني، متحاشياً قدر الإمكان النظر إليّ.

- هل نذهب ؟

13

أعصرها حلوةً في لساني، تذوب مـاءً وسكراً، ماؤها الأحمر يسيل في حنجرتي دافئاً دافقاً، أعاود الكرة..

حقول الفاكهة تمتدّ سرمداً، تخترق كل بقعة تلامسها عينيّ، فراولة حمراء كبيرة في فمي، أمضغها باشتهاء، وأنت على بعد خطواتٍ مني تدندن بالرطانة التي آلفها ولا أفهمها، تطرح السؤال ذاته للمرة العاشرة «أليس هذا أفضل من كل رحلاتهم المملة؟»، وكأنما تريد أن تؤكد لنفسك انتصارها، تنظر إلى معصمك وتهتف بحماسة:

- إنه موعد مغادرة القاعة!

يغوص قلبي انقباضاً، وتصعد عيناي إلى السماء، تخمدُ فجأة.. إذ تتحسس القلق في عينيّ، ألوي شفتيّ حرجاً، تصرخ بنفاد صبر:

- لا تقولي بأنك نادمة على المجيء!

- أنا لم أقل ذلك.

- ما المشكلة إذاً ؟!

حاجباك معقودان فوق جبينك، تدفن يديك في جيبيك لتواري ارتعاشة انفعالك، أجيبك متلعثمة:

- ضاري، لقد تكفلت وزارة التعليم بتكاليف إرسالي إلى هنا من أجل هذا الاختبار.

- بربك.. أي فرق سيحدثه حضورك عن غيابك ؟

- لا فرق على الأرجح.

- الوزارة تعرف ذلك صدقيني!

- ماذا عن الالتزام الأخلاقي تجاه المهمة التي كلّفتُ بها؟

- لطيفٌ جدا يا فأرة هذا الالتزام الأخلاقي .. ليتك تتمتعين بمثله تجاه أمور أخرى!

- مثل ماذا؟

لويت عنقك وأطلقت من فمك بصقة اشمئزاز وصرخت:

- سحقاً ! ماذا يفعلون للطلبة هناك؟! لقد حولوك إلى مسخ!

- و لماذا تصرخ ؟!

- هل تشربين بلازما الدم على الإفطار؟ وتركّبين شفرة الـ DNA عوضاً عن ألعاب «ليقو» ؟ هل تصنعين «بيض عيون» من نواة خلية كتكوت؟ هل تربين عفن الخبز في حوض السمك؟

- ما هذا السخف !!

- #$٪&#$٪^& [1]

- ما هذا ؟!

- &٪!@#(&#$٪^&

- كفّ عن ذلك!

تصرخ بالسويدية، تركل الحجارة وتزفر، ترطن بما أخمن أنه شتائم، فقدتُ أعصابي لحظتها، صحتُ فيك:

(1) رطانة سويدية غاضبة، لا أعرف معناها !

- اغرب عن وجهي أيها السويدي التافه!

- عفواً آنستي، لا تنسي نفسك لأنك لن تطالي الشرف!

دمائي بدأت بالغليان، رميتُ سلال الفراولة عليك ومضيتُ لأستوقف سيارة أجرة، ما زلتَ ترغي بتلك الرطانة فيما الأسئلة تعصرني دموعاً.. تصرخ بي، على بعد عشرين خطوة مني:

- هيه، أنتِ.. أين تظنين نفسك ذاهبة؟

- أريد أن أعود إلى الكويت .

صوتك يرتعش غضباً :

- غبية!

- تافه!

- أنا لا أحب وطنا يبالغ في احتقاري!

- و ماذا فعلت الكويتُ لك؟!

- لا شيء، رفضت إعطائي الجنسية فقط!

الفصل الثاني

كل شيء
يتكوّر
مثل حزني
في دمعة !

14

«البدون»

هكذا يسمّونك هناك، وهذا يعني أن تعيش مجرداً من أي أوراق رسمية تشير إلى وجودك، مع العلم أن كل الأوراق الرسمية غبية! يعني أن ترى العالم ولا يراك العالم، أن تحتاج طوال حياتك إلى جحيمٍ اسمه الآخرون كي تحظى بحياة/ عمل/ علم.. إلخ، يعني أن لا تنال أي وظيفة مهما بلغت من مراتب علمية ما دامَ شرط «نسخة من الجنسية» مدرجاً ضمن شروط التعيين، يعني أن تواري حضورك مثل عورة لأنك مقيمٌ بصفة غير قانونية في مكانٍ تَفترِضُ أنه وطنك، يعني أن يَركلوكَ إلى الشارعِ تطبيقاً لسياسة «التكويت» في التوظيف، يعني أن لا تنالَ أي درجة فوقَ نطاق الثانوية العامّة لأن الدراسة في الجامعة حكرٌ على كويتيي الجنسية، أن تجبر على التسلق بلا أيدٍ، أن تحرم من الزواج لأن السجلات لا تباركه لعديمي الجنسية وتمنع من الطلاق لذات السبب!

لنضحك على تفاهة العالم ونغني دونما انفعال/ دونما افتعال:
أوقفوا هذا الوطن عند حدّه!

- ضاري أنت.. «بدون»!

أسألك، الدموع تطفرُ من عينيّ، ترتعش أوصالي، أجثو خائرة، فيما تجرجر خطواتك الحزينة إلى السيارة مطأطئ الرأس - أيها الشامخ - لأول مرة!

15

ألقيتُ بي في المقعدِ الخلفيّ داخِل السيارة، متكوّمة مثل فوضى، ضممتُ ساقيّ إليّ، أسندت رأسي إلى الزجاج البارد، حيث بدَأتْ - ويا للعظمة! - تمطر في أبسالا.

تدندنُ بشيءٍ ما، شيء يشبه البكاء، تردد تعويذة المطر «وكلّ عامٍ حين يعشب الثرى.. نجوع!»، أنشودة السيّاب الخالدة، الملاقحة الأزلية بين الخصوبة والتصوّر، الخدر الحزين يحتشدُ فينا، تتضخم في أصابعي شهوة البكاء والخدش، هذا المطر.. وعريك المباغت، أكثر من قدرتي على الاحتمال.

أوقفتَ السيارة على جانب الطريق، لم أمانع، لم أكترث، لا فرق.. لو امتدّ بي هذا الطريق أبداً لما مانعت، غريبٌ أن نشعر بالأمان المفاجئ مع أحزاننا، أريد أن أنام، لكن.. ماذا تفعل الغربان فوق إنارة الشارع.. ألا تخاف البلل؟

فتحتَ النافذة الخلفية، قلت.. وكم بدا صوتك غريباً، كأنني أسمعه للمرة الأولى:

- أخرجي رأسكِ، سيمرّ وقتٌ طويلٌ حتى تري مطراً كهذا.

ثنيتُ رقبتي للخلف وتركت المطر يلعق جبيني، يتساقط البللُ متكوّراً، أنت.. يا بدوياً في الصميم، تعرف بأن المطر لأي عربيّ ضربٌ من ضروبِ العشقِ، أعدتُ رفعَ النافذة، أجفّف وجهي بمنديلٍ وأفتعلُ بهجة ساذجة.

- ممتع!

فابتسمتَ، عبأتَ صدرك بالهواءِ، أطلقت تنهيدة مديدة كحكاية:

- لو عصبوا عينيّ تحت المطر سأظل قادراً على تعرّف مطر الكويت من مطر السويد.

بلعتُ ريقي مراراً حتى جسرتُ على طرح سؤالي:

- هل تفتقدها يا ضاري؟

- بجنون!

انطفأ في داخلي شيءٌ ما، أغمضت عينيّ، الحمى فيّ تتأجج.

16

أقفلُ مقلتيّ بإعياء، صوتك يتسلل من غياهبِ الغيابِ، يتفشى/ يتسرطن، صوتك! صوتك المعجزة! يتقوض العالم وتتآكل أطرافه ويبقى صوتك، لا شيء يهم عندما تبدأ بالكلام، أنت لا تحتاج إلى العالم بقدرِ ما يحتاجك، فأسألك.. أسألك! الصمت أسئلة دبقة، متلاصقة الأعضاء، من ذا الذي يجازف بقتل سؤال إلا خائفاً من حقيقة؟ كان صوتك هو الحقيقة الوحيدة، وكان يومها كالتراتيل المقدّسة.

- حدّثني عن الكويت يا ضاري، أريد أن أراها بعينيك أنت.

كان هذا السؤال - الحقير ! - هو ما فجّر في صدرك كل هذا النزف، تدلقهُ فوق روحي.. لا برداً ولا سلاماً.

تقهقه كالطاغية، ثم تردفُ بحماس: النبش لعبة يحبها الصغار!

- لا أقصد..

- أعرف ما تقصدين.

تقولها بنبرة حازمة، تلتفتُ إليّ، لا أدري كيف طفت تلك النشوةُ الوقحة على عينيك، كيف أصبحتَ فجأة قاسياً وقريباً، أشيح ببصري عنك، يداهمني ارتباك فج، تردفُ قائلاً:

- لا تنظري إليّ بتلك النظرةِ وإلا فقأتُ تلك الأعين، إذا أردتِ أن تسمعي مني فاخرسي تماماً، تريدين أن نتحدث في الأمر؟ لكِ ذلك .

كنتَ تكرهني، هكذا شعرتُ، وكلانا وجد لذة في ذلك، تربصتُ بك بصمتٍ، لا أسمعُ حتى أنفاسي، تشنّجت أعصابي إذ أنا أتشاغل بنتف منديل ورقي فيما أنت تشعلُ سيجارة، ودون أن تلتفت شرعتَ في الحكي:

- دعيني أحدثكِ أولاً: منذ زمن وأنا أشعر بأن الكويت ستزورني يوماً، ولكنني لم أتصور أن يكون لحضورها هذا التأثير بعد كل هذه الأعوام، صلّيتُ ليحضرها الله لي لأني كنتُ أكثر غروراً من أن أطلب عودتي إليها، فكنتِ أنت.. يا لرحمة الله! كنتِ أنت وسلّموني أمركِ بسهولة غير معهودة، أنا لستُ من رعايا السفارة

يا فأرة، لقد تمّ ترتيب الأمر ليتولى الترجمة صديقٌ عراقي أعرِفه، ولكنه بمجرد أن عرف بأنك من الكويت اتصل بي وصاح «أيها الأبله! أحضرتُ لك من يخبرك عن نخلة السالمية!» وكنتِ أنت .. ولكن الآن، الآن .. لو تشعرين بي وتعفينني عن القول! دعيني أشرح الأمر.. هذا الذي أمارسه فيك الآن، انتقامٌ طفيف ومؤذٍ، أنا أشوه فرحك التافه بوطنٍ أعي أبعاد فتنته، أستبسل لأجعلك تشبهينني وهو شيءٌ لا تعين خطورته بعد، أنتِ الكويت بتفاصيلها الباذخة مصبوبة في هيئة أنثى، أشتهي إيذاءكِ، لكنك لن تشعري بالأذى إلا لاحقاً، بعد أن تتسلل دماء المنفى الباردة إلى عروقكِ، وتجدي ارتطامك بالوطن مؤلماً ودونما شغف ..

- إنك لا تستطيع إيذائي يا ضاري.

- اصمتي! لا أريد أن يقاطعني أحد.. حتى أنتِ! فرح، أنت تتقنين إيلام رجل، وهذا يجعلك - في عرفي - امرأة شرقية تامة الأنوثة! لماذا تبكين الآن؟ نامي يا حبيبتي.. وانسي كل ما أقولهُ، لماذا تجعلين نفسكِ

سائغة ومستسلمة هكذا؟ لو تتصورين كم تمنّيت هذه اللحظة . ولكن الآن .. أنا آسى لأجلكِ، نامي يا فأرة، أبسالا الفاتنة تمطر من أجلك ولكن ذلك لا يحرّك فيكِ أي نوعٍ من المشاعر، لا ألومك.. تعرفين بأن هذا المطر زائف، لمجرد أن روحه لا تحمل العبق الذي نألف، تعرفين بأنه شأن كل الأجسام المفرغة من الرائحة كذب صرف، أنتِ مثلي، لا يستفزك إلا مطرُ الصحراء.

لكم هو غريبٌ أن تتحدّث بتلك النبرة، وكأن كل ما تريده بعد سقوطك الأول أن تصنع إعادة بطيئة من زوايا مختلفة تصوّر بها حزنك بدقة أكبر، تريد أن تجعل كل الأسباب واضحة، ساطعة حتى التيه، أطمر هلعي في داخلي وأصمت، أضمّ ركبتي إليّ وأحتضن رأسي بينهما، أخبئ عنك دموعي والحمى، حتى أنفاسي في تلك اللحظة بدت مثل خطيئة، استسلامٌ تامٌ يعتريني كما لو أنني ماثلةٌ في صلاة في آخر الليل، لكنك لم تكترث، لم تنتبه، وواصلت بلذة النشوان من فرط الألم:

- ماذا قلتِ قبل قليل ؟ (حدّثني عن الكويت؟) أنتِ الحاملة في باطنك كل هذا العشق للوطن الذي أحبه

ولا يكترث لي.. ألا تدركين أنك تجعلين انتقامي مهمة أسهل؟ تجعلين نفسكِ لقمة سهلة لمن لا يريد إلا أن يدمر أسطورة الوطن في رأسكِ، أملكُ أسباباً مبررة لذلك، أكثرها سطوة أنه لا أحد ينافسني على امتلاك رأسك الفاسدة سواها، الكويت إياها، تخيلي أن تجعلي نفسك نداً لوطن، يعني أن تطالبي بحقك الشرعي بأن تكوني سكناً في عالمٍ سادت فيه أوهامٌ رائجة حول الانتماء إلى بقع إقليمية، العالم يعجّ باللا منتمين، لماذا إذاً تطلب فتاةٌ مثلكِ أن ترى الكويت بعينيّ؟ إنها حيلةٌ وحسب، يا لدهاء النساء! كان ينبغي أن تسأليني بوضوح سافر ولن أغضب: ضاري، كيف تشعر لكونك (بدون)؟، وسأجيبك ببساطة: إنه لأمرٌ رائعٌ - يا صغيرتي - أن أكون (بدون)، رائعٌ ومرعب كالحرية تماماً، ألم يقل سارتر «الحرية هي الرعب؟!» أنا أشعر بالشيء نفسه، رعبٌ بهيٌّ ومثير، وحرية ثقيلة الظل! ألا تعرفين بأن الهجرة واجبةٌ على المظلومين؟ هل عليّ أن أشرح لكِ مفهومي للظلم؟ هاكِ مثالاً، أعرف شاعراً تصنفونه

أنتم - برجوازيي الوطن ومحتكريه - من (البدون)، تخيلي.. قصائده مترجمة إلى سبع لغات، يعرف في كل العالم كشاعر كويتي، ولكنه في الكويت غير معترفٍ به، هل هذا عدل يا فرح؟ هل هذا عدل؟ نسيتُ أن أخبرك أن هذا الشاعر هو أبي، وقد هاجرنا لأنه أراد أن يثبت أنه بدويٌّ حقيقي لا يرتضي الإهـانة.

- ...

- أنتِ لا تسمعين، هذا أفضل، سيقتلني إحساسي بالذنب لحظة عودتكِ، على فكرة، ماذا سأفعل من بعدك؟ أبيع «الترمس» و»البَنَكْ» عند إشارات المرور؟ لماذا جئتِ إذاً؟ أوه صحيح .. لم تجيئي من أجلي، بل من أجل الوطن! سأضعكِ أنتِ الأخرى مع كل الأشياء التي خسرتها قبل أن أملكها وكان السبب في ذلك: الكويت، لا تطلبي مني يوماً أن أوقظ ذلك الجزء المعتم في ذاكرتي، لأن طفلةً مثلكِ لن تتحمـل حلكة الظلمة، أنا نفسي كنت أخاف من الظلام، كنت أرى الستائر أشباحاً، أتخيل أقزاماً يتسللون من ثقب المفتاح، خيالٌ ساذج لكنه

مخيف، كان عليّ أن أتعايش معه طوال شهر في تلك الزنزانة.. حسناً، يمكنك الآن أن تضيفي إلى سيرتي الذاتية: (محتجز سابق في سجن الأحـداث، بائع مناديل عند إشارة المرور في شارع دمشق تحت جسر العديلية، وأخيراً وليس آخراً، هاربٌ من وطن اللا مستقبل) هل هذه أسباب كافية؟ تخيلي أن تعيشي بلا مستقبل، بلا ضمان، تخيلي أن تعيشي متكئة على غيرك طوال عمرك وإلا فالأجدى أن تصبحي تاجرة في السوق السوداء تلاحقك السلطات لتطرقي أبواب الآخرين من أجل كفالة أو ما شابه، وأن تسترقي السمع في الدواوين لأحـاديث مطعمة بكلمات مثل «ميكافيللي» و»شيزوفرينيا» و«يوتوبيا» و«ملوخية» وتعضّي على يديكِ لأن الوطن حكم عليكِ بالجهل، العلاج يقدم للجميع بالمجان إلا أنتِ رغم أنك تحملين لون الجلد نفسه، ليذهب كل هذا إلى الشيطان، هل سبق وأن أحببتِ؟ هل سبق وأن أحببتِ يا فأرة؟ تخيّلي أن تحبي شخصا لا يحبك، كنتُ أنا هذا الشخص، وكانت الكويت هي حبيبتي، وكان

عبثاً استرضاؤها، أوف! أنا لا أريد شيئاً من أحد، أنا لن أبيع بداوتي من أجل هُوية أقسم إنها تستوطن دمائي ولكن لا أحـد يصدق ذلك، ماذا تريدين الآن ؟ هيه أنتِ؟ هل تسمعين؟! لقد وصلنا إلى فيس!»

17

فاتَ أوان التظاهر بالنوم، كان ينبغي أن أدفن رأسي تحت الوسادة بمجرد أن أسمعها تدلفُ إلى الداخل، خانتني بديهتي، وهي لم تجتهد لإخفاء دهشتها بي، سألتني بارتيابٍ:

- هل اختبرتِ؟

- طبعاً!

- جيد، من الغريبِ أنني لم أركِ طوال اليوم، أليس كذلك؟

- هناك ما يفوق المئتيّ طالب في أربع مجموعات، ليس الأمر مستحيلاً.

جلَستْ على طرف السرير وبدأت تفُكّ خيوط حذائها، سألتْ بكدرٍ ملحوظ:

- كيف كان الاختبار؟

أجبتها دون تفكير: كان أسوأ اختبارٍ في حياتي.

- فعلاً .

بدَت مغتمة، كوّرت جوربيها ودسّتهما في بطن الحذاء، قالت بنبرة أسى:

- أتساءل عن فرصة فوزي بالمركز الأول!

كنتُ على وشك التعاطف مع حزنها، ولكنني سرعان ما أخفيت وجهي خلف اللحاف وأنا أصرفُ بأسناني، أغمضت عينيّ وبدأتُ أستحضر ملامحك، كنتُ أقيم موازنة بين ما خسرته وما نلته حتى الآن، وكنتَ أنت الرقم الأخير في رصيد إفلاسي.

- فارا .. ماذا قلتِ ؟

- قلتُ بأنني سأفوز بالمركز الأول بالتأكيد.

قلتُ ذلك بصوتٍ ساخط، من تحت اللحاف، لم أكن بجسارة أن أنظر حتى في عينيها، كان سيشعرني بالتحسن لو أستطيع أن أكرهها، أو أن أجد سبباً لذلك، كان حضورها راسخاً كوشم، يحرّضُ هزائمي على إعلانها ثورة، فورة، أي شيءٍ عديم الفائدة وبضجيج مدوٍ، كانت هي - بكل نجاحاتها - تجسدُ، ببساطة متناهية، كل خساراتي.

لم تعلّق على ما قلت، الأمر الذي أثار عجبي، لا سيما أنني قلتُ ما قلتُ لا لسبب سوى استفزازها، كانت تأخذ التحدي بمحمل الجد، بل بجدية أكبر مما يجب.. حتى إنها لم تعد راغبة في الحديث، بدأت تخلع ثيابها بصمت ووجوم، أطللتُ برأسي من خلف اللحافِ وأضفت:

- شوشو .. أنا فعلاً لا أعني ما أقول!

- ماذا تقصدين ؟

- كنتُ أداعبكِ فقط، فأنا لا يمكن أن أفوز.

- و لم لا؟

- ماذا تقصدين بـ «لم لا» ؟ أنا عربية!

18

يدكَ تقبضُ على كتفي، تضخّ الكهرباء وصوتك :

- اسمعي، لا تكوني عنصرية لأن أحداً لن ينصفك، قولي بأنكِ لم تحظي بتدريب مكافئ يؤهلكِ للمثول في مسابقةٍ كهذه فقط.
- لأنني عربية!

هل انقبت المشهد على رأسـه؟ ألم تكن أنت ذاتك تؤمن باستحالة اجتيازي الاختبار لأسباب تسميها الآن «عنصرية»؟ كان القلق يساورك إذ أنا أفقد إحساسي بالانتماء شيئاً فشيئا، وكأن الندم يداخلك، وكأنك ما كنت السبب، ولكن.. هذا الانزعاج الذي يملؤك لم يكن يعنيني، ساخطة كنتُ.. أحدّق في السقف المفلس من أية نقوش، وأنتَ تنفث دخان سجائرك في الخلاء، تنغمسُ في تقطيبةٍ مرّة، أرمُقك بارتياب، ثمة ما يضايقك، وجهك اليوم أكثر

اصفراراً من المعتاد، هالاتٌ سوداء تعتصر عينيك، وكثيرٌ من الصمت يجون بيننا لكثرة ما يجب أن يقال.

اليوم الخامس إذاً؟ لا برنامج لهذا النهار، كثيرٌ من الطلبة ذهبوا في جولةٍ إلى ستوكهولم، البعض الآخر آثر زيارة أسواق أبسالا، وحدي بقيتُ في السّكن، الشيء الوحيد الذي بدا منطقياً أن أفعله هو أن لا أفعل شيئاً، أي ارتكابِ طفيف للّذة سيكون تطفلاً، فأنا لم أعد هنا من أجل المسابقة، ورحتُ أبحث عن سببٍ لوجودي، فكنتَ سبباً مضمراً في شفة القدر لم أكتشفه إلا متأخرة.

الجميع يتحدثون عن حفلة الرقص والألعاب النارية التي ستقامُ مساءَ اليوم، يحتاج الطلبة إلى جرعةٍ ضخمة من البهجة بعد كل هذا الجهد الذي بذلوه، أما أنا.. فما شأني؟

التقينا في ساعةٍ متأخرة هذا الصباح، في الحادية عشرة تقريباً، جلسنا بصمتٍ في غرفة الجلوس التابعة للسّكن، تجاذبنا أحاديثَ جافة وصمتاً أجفّ، فرغتَ من السيجارة الرابعة، أتأفف، أسعل، أسألكَ بضيق:

- ألا تبالغ ؟!

- لا

لا يبدو عليكَ الاكتراث، تنتزع من السيجارة نفسها الأخير، تفرغه في صدرك، ومن ثمّ إلى السقف، تتأمل طقوس التلاشي المستهام، بدوتَ منفصلاً عن العالم، غائباً في فوضى ما، تسألني بنبرةٍ محايدة:

- كيف صحتكِ ؟

- سيئة.

- هل آخذكِ إلى الطبيب؟

- لا، إنه مجرد توعك، لم أنم منذ وصولي.

كانت صحتي متهالكة، أتقيأ مرّتين في اليومِ على الأقل وتنهشني الحمى طوال الليل، فسرتُ الأمر بحذلقة طالبة الأولمبياد بحموضة زائدة في المعدة إزاء كثرة القلق، الأنزيمات الهاضمة كانت تُفرزُ أكثر مما يجب لهضم القليل الذي آكله، كان القيء يتسلل حاراً، كاوياً، من الجوف إلى الحلقِ، وأشعر مع كل نوبة بأن أحشائي تحترق، الدوار، الإحباط، وهذه الجاذبية الغريبة التي بدأت تشدّني إليك،

كلها تراكمت في فوضى عارمة لدرجة اللا فهم.

- لا بأس عليكِ .

قلتها، وأنت تطرد فلول الدخان من جوفك، أضفت بصوتٍ تشوبه بحة ما:

- ستعودين قريباً .

ها أنتَ تقرنُ بالعودة راحتي المزعومة، تلوكها وأنت تصرف بأسنانك، تلفظها ببطء، مراعياً مخارج الحروف أيما مراعاة، لماذا تبدو ناقمة عليّ هكذا؟ نظراتنا التقت فوق منصة وجعٍ خفيّ، تتأوّه، تتململ، أجتهد لأغيّب أفكاري عني وعنكَ.. هل مرّ أسبوعٌ بهذه السرعة ؟

تقبضُ بيدك على مؤخرة عنقك وتفركها بارتباك، تنظر إليّ، إلى الاحمرار في أطراف عينيّ، شفتي المشقوقة التي نبتت منها قطرات دم، ثم تشيحُ عني، أسألكَ:

- ما بك ؟

- لا شيء .

- هيّا أخبرني !

- لا شيء .

- قل يا ضاري ما الأمر!

- ما جدوى قول أشياء نعرفها.. وربما، نشعر بها ؟

- ما الذي نشعر به؟

- أنتِ بالذات لا تشعرين بشيء!

ضحكتَ، وكانت ضحكة مقتضبة، ثم افترت شفتيك عن ابتسامة حزينة، حاصرتُكَ بإلحاح:

- ما الذي تريد قوله .. هيّا قُلْ !

- الصمتَ أفضل، إنه يوفّر علينا المزيد من الفضائح التي نحب إعلانها لكي ندفع أنفسنا حتى آخر درجات الألم.

- لا أطيقك عندما تتحذلق .

- أيّ أخرى مكانكِ هذا كانت ستفهم الأمر على الفور!

- لسوء حظك، أنا لست «أي أخرى».

- لا.. أنتِ أغبى قليلاً.

أشيحُ عنك بانزعاج، دقيقةٌ صامتةٌ مرّت، الابتسامة الساخرة في عينيك تتسع، ألتفتُ صوبك وأسألكَ واضعةً يدي على يدك باحتيال، أقطب بتوسّل، وأسكبُ صوتي حزيناً راغباً:

- ما الأمر يا ضاري ؟

- طيب! أنتِ الجانية على نفسك.. إن ما أريد قوله ببساطة واختصار وسوقية وشوارعية مبتذلة هو أنني ألعنك كل ليلة لأنني..

انطلق صوتُ هاتفك مولولاً! رفعت السمّاعة:

«ألو.. نعم ضـاري.. فرح؟!»

تنظر إليّ، تشير بيدك إلى الهاتف، تمدّ لسانك وتصطنعُ الحَوَل، الحركة التي تخبرني بها بأن المتّصل هو أستاذي، أشير إليك بيدي «لا» فتفهم على الفور:

- أوه، إنها ليست هنا، لقد ذهبت في جولة مع وفد الهند!

أكتمُ ضحكاتي، أراقب المشهد بانهماك:

- لا.. لا أظنها ستعود في ذلك الوقت.. يفضّل أن لا تأتي.. أوه.. لقد قامت بعملٍ ممتاز.. تقول بأن الاختبار كان أسهل مما تظن.. بالتأكيد.. مع السلامة!

أقفلتَ الهاتف، أطلقنا ضحكاتٍ بلهاء، واستسلمنا لسهومٍ طويل، عندها بدأت ذِكراه تضج في صدري مرة أخرى، شيءٌ أخفيته داخلي طوال عامين من أجل أن أكون في مكاني هذا، اليوم أجدني أبوحُ لكَ به، بتلكّع، بثقل، أنوءُ بالكثير من الأسى، حيث الكلمات تجرّ أقدامها جراً :

- أنا أكره هذا الرجل .

- و أنا أكرهه!

كان ردك ساخراً، موشوماً بالابتسامة اللغز إياها، تذكرني بأنه تدخل ليعرقل مشروع بوحٍ شديد الحساسية

- كان يلاحقني.

- يلاحقك؟

- يلاحقني.

أزدردُ ريقي، أنفاسكَ تتلاحق، يسقط رأسي بين كتفيّ مثل ثمرةٍ ذابلة، أدفن وجهي بين كفيّ وأبـوحُ.. الحقيقة الآن ترقدُ في حجرك:

- كان يخصني باهتمامٍ مشبوه من بين الطلبة، الجميع لاحظ ذلك، كان الوضعُ مثيراً للغثيان طوال عامين، كبتّه فيّ حتى لا يعلم أهلي وأُحرم من دخول الأولمبياد، الآن أشعر بأنني أضعت وقتي.

- كيف؟

أزردُ ريقي، أسترجعُ في ذاكـرتي تلك التحرشات، ملاحقاته حتى في مسافة خمسة عشر خطوة أمشيها لشراء علبة عصير بين المحاضرات، الأعين التي تتجول على

الجسد، تركض على الجسد، تلتهم تفاصيله، كل هذا أتذكره، أعرفه.. وريقي اليوم أقسى من أن أبلعه!

فوجئتُ بك تضحك، ربما على الشيب الذي أشعل رأسه دون أن يعرقل مشاريعه المراهقة، أنا.. ضحكتُ أيضاً، ولكن بمرارة، ربما لأنها المرة الأولى التي أشعرُ فيها بأنني لستُ الأفضل بين الطلبة ليتمّ اصطفائي للأولمبياد، بل لأنني كنت الأثيرة لدى أستاذٍ مراهقٍ يكبرُ أبي!

- ضاري.. أريدُ أن أتقيّأ!

19

- سأُجَنُّ مِنْكِ !

سبقتني بخطوات، يداك مختبئتان في جيبي بنطلونك، تركل الحجارة ورأسك في السماء..

نوبة التقيؤ المباغتة ضغطت صدرك، لحظة خرجتُ من الحمّام وجدتكَ متوتراً حدّ البكاء، كان وجهك شاحباً كالأموات، أطرافك متشنّجة، وشفتك مزمومة، ألقيتُ بثقلي على الأريكة بتراخٍ: «عفواً»، فارتديتَ معطفك وخرجتَ من المبنى على الفور، لحقتُ بك وأنا لا أفهم شيئاً مما يحدث لك.

- هل أنتَ بخير ؟

- لا .

قاطعٌ ردك، مدبب الأطراف، نصلٌ في الخاصرةِ، أنا التي لا تفهم كيف يمكن لهذه الـ(لا) أن تحمل لي في بطنها كل هذا الملام، لماذا تنظر إلي هكـذا؟ أتوارى فيّ، أتراجعُ خطوتين، كمّ الرسائل المشحونة في عينيك كان يفوق احتمالي، أبحثُ عن انسحابٍ ما، عن نهاية بضررٍ أقل، أوليك ظهري وأعودُ

إلى السكن قابضةً على بطني بألم، يجيئني صوتكَ على بعد خمس خطوات «ربما..» وصمتٌ..

- ماذا؟

- ربما.. ربما.. ما كان يجب أن تأتي يا فرح!

عيناك معلقتان فيّ بحيرة طفولية، وعلى ثغرك نطفةُ ابتسامة، شخصت عيناي بألم، ربما لأنك كنت الشيء الوحيد الذي أبرر به حضوري إلى أبسالا وأخفف به حدة إحساسي بالخسارة، أمّا أن تكون - بكلّ ما أصبح لك من سطوةٍ - نادماً على مجيئي فهذا ما لم أحسب حسابه، ماذا تريد مني الآن؟

- هذا لا علاقة له بنوبة التقيؤ .. صح؟

أغرسُ في وجهك عينيّ، أطرح الأسئلة السخيفة، أنا لا أبحث عن مبرر، ولكنني أنفي كل المبررات، أحطم كل شيء ولكنني لا أقدم بدائل أفضل، يائسة وتافهة، مثل لا النافية! عيناك قهرٌ سحيقٌ، ملامٌ معتمٌ وممتد، وبين عينيك - يتدلى مشنوقاً - الحلمُ الذي أنجبته أنا، وقتلته أنت، لأنك - على الأرجحِ - لا تملكُ خياراً آخر!

أنظرُ إليك، بحيرة أقرب ما تكون إلى الاستعطاف،

مطأطئة الآمال، مسحوقةٌ بالكامل، إذ أراك تنزاح عني وتقف بصفّ كل ما هو ضدي، أنت وهذا العالم كله.. دفعة واحدة، هذا الرّعب الذي تبديه وجهٌ آخر لولهٍ ملح، كانت حواسك تخونك، كل شيءٍ فيك يشي بخلاف ما تتفوّه به، وأنا أتبرزخُ بين الظاهر والباطن، براياتٍ منكّسة وأقدامٌ ترفسُ الهواء.

- لستُ تافهاً لهذا الحدّ.

- ما المشكلة إذاً؟

- إنها مأساةٌ والله أن تكوني جاهلة بالـ(المشكلة) حتى الآن!

أزفرُ، إذ أنا أبعثُ مع تلك الأنفاس الحارقة آخر روحٍ من هزائمي:

- معكَ حق، ما كان يجب أن آتي.

- أحتاج إلى تعويض.

- كيف؟

- لا تعودي.

أنظرُ إليك ذاهلة، تغمزُ لي وتبتسم، ولكن من جانبك الأيمن فقط!

20

قاعة الطعام مغلقةٌ، لم يخطر بِبالنا أن الإجازة ستشمل الطبّاخينَ أيْضاً! الجوعُ يقبض على معدَتينا ونحن ننتظر، جَلسنا على عتبة مطعم السّكن نفكر فيما نفعله، أكفنا تحاصر وجوهنا الحائرة في الخلاء الأخضر، لا فكرة تلوح في رأسي.

بعد برهةٍ قصيرة، هتفتَ وقد لمعت عيناكَ ببريقٍ غريب:

- تعالي إلى منزلي.. سأطبخُ لكِ !

- أوه لا!

- أوه بلى!

- لا يمكن ذلك.

- سأطبخُ لكِ . وأقرأ لكِ من أشعار بوشكين!

- بوشكين؟!

- إنه أفضل من تغزّل بأقدام النساء.

انقلبتُ على قفاي ضاحكة، فيما استرسلت بحماسةِ الأطفال:

- سأعزفُ لكِ على البيانو.. وأريكِ مرسمي، لستُ رساماً جيداً ولكن ثمة من يظنّ ذلك، ربما سأرسمكِ، أعني.. سأرسمكِ مرة أخرى! ولن يكون الشيطان بيننا! أوه .. قد تكون إهانة لامرأة مثلكِ أن لا يكون الشيطان معها! أليس كذلك؟ لا تضحكي.. لا بأس، أعدكِ أن أكون الشيطان، هه.. ما قولكِ؟

قبلتُ - بتحريضٍ شيطانيّ صرف! - أن أتناول الغداء في منزلك، لم أفكر في الأمر كثيراً مخافة أن أتراجع، كل صرخات الضمير المحشوة في رأسي سددتها بحضورك والأغنيات، ركبنا سيارتك مرة أخرى، وقطعنا مسافة نصف ساعة حتى توقفنا أمام أحد المنازل الصغيرة.

- وصلنا، انزلي.

- هل أمّك في الداخل؟

أسألكَ بنزق، تجيب هلعاً:

- أمي؟ لو أحضرتكِ إليها لضربت مؤخرتي ألف مرة، أنا أسكن وحدي يا لئيمة.

- و أين أهلك؟

- في ستوكهولم، لم أشأ ترك أبسالا بعد تخرجي، لقد أعجبتني، إنها أكثر عزلة، والآن انزلي، لا تخافي أنا لا أعضّ، وكل ملابسي الداخلية في دواليبي.. لا تخشي شيئاً!

دقائق وكنا في الداخل، معاً، في مكانٍ يشبهك لأنه ببساطةلا يشبهُ شيئاً، منزل حداثي الطراز والفوضى، أكاد لا أصدق أنه منزل بدوي، لا شيء فيه يشي بذلك اللهم إلا «الدشداشة» المعلقة على المشجب أراها منعكسة على المرآة من غرفتك وزجاجتي «دهن العود» على الطاولة بجانب المدخل، ومصحفٌ على طاولة غرفة الجلوس، عدا ذلك كان المكان زاخراً بفوضاك، صورٌ معلقة على الجدران، صورةٌ لحيوان ابن عرس/ سعاد حسني/ بوشكين/ أبراج الكويت/ صورةٌ لك ترتدي ملابس التينس.. وأخرى لك مع كثير من الرجال مختلفةٌ ألوانهم، وجوه من كلّ مكان،

بامتداد المسافة الواصلة بين الصين وأوروبا، صورةٌ للكعبة المشرّفة، ونباتات آكلة الحشرات، صور شخصياتٍ لا أعرفها وآخرين ذُعرت من وجودهم، حتى هتلر وضعت له صورة شامخة وعرفتني عليه بقولك «النازي ظريف الشارب»، وكانت الجدران بدورها ملطخة، يصعب تعرف لونها الأصلي لكثرة الملصقات، أحوقل وأبسمل:

- الآن تأكدت من جنونك يا ضاري.

- هل أريكِ المرسم؟!

أشرتَ بإصبعك إلى غرفةٍ مغلقة، ثم أردفت:

- اذهبي وتفرّجي، ولكن إياك أن تلمسي شيئاً.. سأقطع عنقكِ ! إذا حرّكتِ شيئاً من مكانه فلن أعثر عليه قبل القيامة، سأكون في المطبخ .

دخلتُ مرسمكَ بوجل، غرفة خالية بإضاءة قوية، أكوام كتب وغبار، لوحاتك معلقة بالجدران بمحاذاة بعضها، متراصة كطابور أطفال المدارس، كلها حرة، بلا براويز، وأخرى مرميّة على الأرض بإهمال بعد أن تركتْ عليها فرشاتك خدوشاً كحلية غاضبة، لوحاتك ألغاز للوحل،

أنتَ في مدينة الضوء هنا، في حضن عرافة النهار، من أين لروحك كل هذه العتمة لتلطخ بها ريشتك؟

لم تكن ترسمُ شيئاً كما تراه، كان ثمة صور جمعتها من مجلاتٍ تتكئ عليها في أفكارك، ولكنك كنت تعيد تشكيل كل شيء، صورة وجه المرأة الملطخ بمكياج أزرق تحولت بين يديك إلى بدوية متدثرة بالسواد، كدتُ لا أتعرفها إلا من عينيها، صورة الأطفال القعودِ على ناصية الشارع استحالت لوحة أقزامٍ قرروا السفر في ملاحقة أزلية للضوء، صورة المرأة على غلاف المجلة تحولت إلى عجوزٍ بخدوشٍ طويلة على الخدّين، لكنك أسقطت عليها الشفة والغمازتين، عملية إعادة بناء، وربما تشويه، لا يعجبك شيئا كما هو، تريد أن تتدخل في كل شيء، أن تعيد تشكيل كل شيء، ولكنك في الواقع لم تكن تقدم بدائل أفضل وأنت تعرف ذلك، المهم عندك هو هذا التطاول على خارطة العالم، لوحةٌ واحدة فقط بدت لي لغزاً، كانت بيضاء بالكامل، بيضاء تماماً، وكنت أبحث عن هذا الشيء الذي جعلك تلطخ لوحة بيضاء باللون الأبيض! أم أنك لأول مرة - يا ترى - لم تعد تشتهي التدخل لتشكيل العالم بريشتك؟

نصفُ ساعةٍ انقضت وأنا أمرر بصري على ما ترسمُ، حضرتَ فجأة، بأكمامٍ مشمّرة، وجبينٌ يلمع من العرق.

- أعددتُ طبقاً سريعاً، تحبين البيتزا.. صح ؟

- ما هذه؟

- ماذا؟

- هذه!

أقولُ مشيرةً إلى اللوحة البيضاء بالكامل، المعلقة في واجهة المرسم:

- إنها آخر أعمالي.

- و لكنها لا شيء!

- كيف تقولين شيئاً كهذا؟ هذه اللوحة هي أنتِ!

قلتَ ذلك وأنت تضغط أنفي بسبابتك، وضحكتَ - كالأوغاد - حتى خلتك تريد إهانتي، استدركتَ منصاعاً لدهشتي:

- أؤكدُ لكِ أن هذه اللوحة هي أنتِ.

- مستحيل.

- أنتِ لا تفهمين، ثمّ.. من الذي يزعم أنها خالية من الفن؟ حتى الزاويةِ التي تبدأُ بها ريشة تلوينك ذات مغزى، أنا بدأتُ من المنتصف.. أترين ؟ تلك الدوائر.. دوائر متداخلة وآخذة في الاتساع؟! دققي النظر لأجل الله، ماذا ترين؟ إنها وردة.. وردة.

- ولكنّ البياض هو البياض!

- بالتأكيد، ولكننا نتوق إلى صنعه بأنفسنا، هذه هي كل القضية.

ضجّ وجهي بحمرةٍ قانية، ولكنك لم تكترث، وكأن ما تقوله كان فارغاً من أية إشارة، ربتّ على كتفيّ وغادرتَ المرسم قائلاً: ستبرد البيتزا..

من أين للمستك كل هذه السطوة؟ أشعرُ معك بالخفة، أمشي على أطراف أصابعي، لو كنتُ أكثر جرأة لتبعتكَ رقصاً!

نجلسُ على الأرض، على سجادة فارسية مهترئة، العادات البدوية تسكننا بإلحاح، نشمّر عن أكمامنا ونتسابق في التهامِ الطعام، أنت تشبه أبي في أمرٍ واحد، أنني ما إن أنهي صحني حتى تعاوِد ملئه. أسألكَ بفضولٍ يفيض:

- ما الذي كنتَ تريد قوله صباح اليوم ؟

- ماذا ؟

- ثمة ما أردت قوله عندما اتصل الأستاذ.

- ألم تنسي الأمر؟! لن أخبركِ.

- هيا قلها يا ضاري!

- كلي هذه البيتزا أيضاً.

- يجب أن تخبرني، لأنني سأعودُ إلى الكويت وستندمُ لأنك لم تخبرني بالأمر.

- مزيدٌ من الكولا؟

- نعم أرجوك، ولكن يجب أن تخبرني.. يجب!

- سأخبركِ به في الوقت المناسب، ولعل الوقت لا يكون مناسباً أبداً.

- ستخبرني به، وإلا فسأقضي عمري كله أتساءل عن هذا الشيء الذي أردتَ قوله ولم تقله.

- عظيم! هكذا أضمن أنك لن تنسي بدويّ السويد،

صح؟

يلفنا صمتٌ واجم، تتلاقى الأعين في حزنٍ شفيف، الفراق أضحى وشيكاً، الفراغُ يتربص بنا محدقاً، ننكس أعيننا مثل رايات استسلام، ترتشفُ البقية الباقية من الكولا وتضيف، مستجمعاً جلدك ولا مبالاتك:

- ستعودين، وربما ستنسينَ كل شيءٍ عني، قد تتذكرينني أحياناً على أي حال، ثم سيأتي وقتٌ تصبح فيه ذكراي خطيئة.

يلفّنا صمتٌ كثيف، ثم تردفُ وقد لمع في رأسك خاطرٌ غريب، جعل عينيك تتوهجان:

- هل أنتِ مخطوبة لابن عمك؟

سؤالك المباغت غير المتوقع جعلني أنفجر ضاحكة، حتى أنني وجدت صعوبة في البلع، ولكنك واصلت دون أن تهتم:

- لا بد أن تكوني كذلك، إذ غالباً ما تجري الأمور هناك هكذا، فلان لفلانة وفلانة لفلان، زواج «قصٍ ولزق»، معلبات المشاعر والعلاقات الخاصة! لعلّكِ مخطوبة لابن عمك ولا تستطيعين البقاء هنا،

إذ كيف تستطيعين أن تخلي بهذا الميثاق المقدّس بمباركة الآخرين، وأيّ كارثة ستلحق بوالديك لو فعلتِ، أعني .. لو قررت - مثلاً - أن تختاري أنتِ شريكك، أو قررتِ على سبيل الجنون أن تعشقي وتنجرفي في العشق حتى تقبلي بتسليم قلبك لأحدهم، تسليم قلبكِ، وليس تسليم جسدكِ، بصراحة يا فرح هل يعجبك «سوق النخاسة» الذي يجري وراء الجدران بحجة الزواج؟

- سوق النخاسة؟

- غريب، أتعنين أنك لم تتعرضي له قط؟ أشك ! لابد وأن العجائز يجلسن في الصفوف الأولى في الأعراس حتى يتاح لهن فحص هذه وتلك وانتقاء الفتاة التي تبدو أكثر إرضاءً، أليس كذلك؟ التغامز الفاحش والأيادي التي تتحسس الأفخاذ واستراق النظر إلى النهودِ البازغة.. ماذا كنت أقول؟!

- لستُ مخطوبة.

- حقاً؟! هذا رائع، رائعٌ حقاً، أنا سعيد.. سعيد بك

ولكِ، ولكنني قلق قليلاً، وربما ستجدين نفسكِ تشتمينني يوماً «تباً لك يا ضاري! لم أعد قادرة على الحياة في وطني» ولحظتها سيكون أمامكِ حلاّن، إما أن تهاجري بعيداً وربما يتسنى لنا أن نلتقي مرة أخرى ونقرأ قصائد بوشكين بذهنٍ أكثر صفاءً، والحل الآخر أن تنتزعي منكِ حب الشك، وأن تقنعي نفسكِ بكل ما لا يقنعك، وهذا غير مستبعد على الإطلاق، بل لعله الاحتمال الأكثر قابلية للحدوث بالنسبة إليكِ، وستتزوجين ويصبحُ عندك أطفال ووظيفة، هذا إن كان زوجكِ غير رافض لمبدأ عمل المرأة! ثم ستشيخين وتموتين ويطمركِ التراب، وسيتذكرك قليلٌ من الناس ويقولون: لقد ثابت إلى رشدها في النهاية، عليها رحمة الله!

- وماذا سيقول الناس عنك؟!

- عني أنا؟ وكأن العالم يراني! لا أحد يراني يا فأرة، لم أكن أريد ذلك منذ البداية ولكنه كان قدري على الأرجح، أن تكوني «بدون» يعني أن تعيشي (مهمّشة)، وأن تكوني منفية بإرادتك يعني أن

تعيشي (هامشية)، فهل تعين الفرق؟ للآخرين.. ليس ثمة فرق، ولكن بالنسبة إليكِ.. ستعبئين صدرك بالغرور وتقولين «لقد كان خياري»، وتشعرين بالانتصار.

- لا تكن مكابراً إلى هذا الحد يا ضاري، تستطيع الآن أن تعود إلى الكويت، وأنا لا أفهم كيف لم تفعل ذلك منذ وقتٍ طويل.

- أعودُ إلى الكويت؟ إن مجرد العودة إلى هناك سيكون طعناً في بداوتي! ليس لأنني أحمل جنسية سويدية، ولكن.. أحد عشر عاماً قضيتها في المنفى أبذل جهدي لكي أتواءم مع كل ما لا يشبهني، فإذا أنا في النهاية لا أشبه وطني ولا منفاي، فهل أعود إلى الكويت لكي يرى الجميع خسارتي؟ أنا لن أعود، سمِّيني مكابراً ولكنني لن أعود، وربما عليكِ أنتِ أن تبقي معي.

- أنا؟!

- نعم أنتِ! أنتِ، إنني جاد!

كان في عينيك غضب بارد، تجمدت في مكاني، اللقمة

اختنقت في حنجرحتي لكني لم أجسر على بلع ريقي حتى لا أفضح ارتباكي أمامك، لكنك على الأحرى لم تكن تتابع هكذا تفاصيل، تجمدني بعينيك لكنك لا تراني حقاً.

خيّل أنك تشتهي ضربي، وكأنك قضيت الساعات الطويلة في التفكير في هذا الأمر لدرجة بدا معها ما تريد قوله جاهزاً، مستعدا للانطلاق في وجهي ولطمي:

- اسمعيني الآن، إن هذا ظلم! أن تأتين بأنانية صرف وترحلين، ثم ماذا ؟ ستتحاشين النظر إليّ حتى في خيالك أليس كذلك؟ وماذا عني أنا.. مولاتي، هل فكّرتِ فيّ لحظة؟

- وكأن الألم يلحقُ بكَ وحدك يا ضاري، كن عادلاً، أنا أيضاً تضررت، لقد رشحوني لأحمل وزر تخلفِ أمةٍ كاملة، فهل هذا هيّنٌ في نظرك؟ لو كنتُ أعلم بأن الأمر سيكون على هذه الشاكلة لما أتيت.

- أنانية! لا، لستِ أنانية، أنتِ تفكّرين بلسانِ أمة كاملة، وأنا أتحدثُ عنك يا غبية، عنكِ أنت، عن هذا الشيء في صدركِ هنا، هل تعرفين بوجوده حقاً؟

دمعة في طريقها إلى التكور في عينيّ، أشيح عنكَ، لم ترها، أضع الطبق بعيداً، أجتهد ليجيء صوتي صلباً إذ أنا أسمر عينيّ على نقوش السجادة الإيرانية التي نجلس فوقها:

- إنك تهينني.

- رائع! هل يعني ذلك أنك تشعرين بما أقوله؟ عودي إلى الكويت إذن.. لا يستحق الأمر كل هذا الوجع، لأجل من؟ لأجل امرأة تضعك في آخر اعتباراتها؟ وكأنني نسيتُ أنك نسخةٌ مصغرة من الوطن، هو الآخر يضعني في آخر اعتباراته! أنا أتراجع عن كلامي.. يجب أن تعودي إلى الكويت وسأنسى أمرك، وأعدك بأنني لن أنظر إليك وأنتِ تغيبين ولن ألوّح.

قلت ذلك ثم نفضت كل شيء من يدك ونهضت واقفاً هامّاً بالمغادرة، لم أعد متجمدة، ولكني أردتُ أن أراك تحترق، بدا لي من الصعب إيقافك فرميتُ بالطبق على الأرض، تكسر وأحدث دوياً مزعجاً إلتفتّ على إثره فصحتُ فيك:

- تريد أن تعرف رأيي فيك؟ أنت ممل.. مملٌ جداً،

أنت أكبرُ مملٍ في العالم، مللتُ فيك هذه النبرة المأساوية، مللتُ طريقتك في تصوير نفسك الضحية المغلوبة على أمرها رغم أنك رجل طاغية، وكأنك تستمتعُ بكل ما لا يناسبك في هذا العالم لأنك فخورٌ باغترابكَ يا ضاري وربما يشعرك الأمر بأنك بطل! تتصرف وكأن الكويت بأسرها تقف ضدك، وكأن الوطن حيوان متوحش ينهشُ أحشاءك، هذا لا يطاق!

أحاكمك للمرة الأولى، ألهثُ وأذرفُ صوتاً موجوعاً:

- ترمي ثقلك كله على الوطن، وكأن الوطن يستقصدُ إيلامك، كف عن تصوير الأمر بهذا الشكل، إنها مأساة أنا أتفق معك، ولكنها مشكلة سوء إدارة وحسب، مؤقته مهما استمرت، وقد لا تحظى الأغلبية بتعويضٍ كافٍ، وبالتأكيد يتحمل أصحاب هذه الفئة الجزء الأعظم من المعاناة، أنا أتعاطف معهم كثيراً، لكنني مللت فيك الرغبة في دفع نفسك إلى أقصى لحظاتِ الألم لتجعلني أشعر بالذنب.. أنتَ.. أنت لست منصفاً، تبرر بإحساسك بالظلم

ظلمك لي، ولكن الأمر ليس كذلك، ليس كذلك!

- تكسي مكة .

تشيح عني وتهم بالمغادرة، أتبعك خطوتين، ألمٌ ينخر صدري، تراي أظلمك؟

- إنني لا أقصدُ إيلامك، إنني حزينةٌ لأجلك حقاً.. أنا..

- لا أحتاجُ حزنكِ..

- أنت لا تحتاج إلى شيء.

الدموع تطفر من عيني، من عينيك، الدموعُ تطفر في كل مكان، العالم كله دمعةٌ عملاقة رجراجة الجسد. أمدّ لك منديلا ورقياً، تلقي به على الأرض، تمسحُ دموعي بطرف إصبعك، تحمل معطفك وتسبقني إلى الخارج..

إصبعك في فمك.

21

ها أنا، وحيثما أكون فثمة أنت، نابتان من اللا مكان، منفيان عن الجميع، متكئان على جذعٍ أو حجر، ربما جدار، لستُ أذكر، الناس يرقصون الرقص الذي لا يشبه الرقص، الأرض ترتجّ تحت أنغام الموسيقى التي لا تشبه الموسيقى، الأرض تهتزّ، وقلبي، والصخب ينضحُ من جِلدي عرقاً، مذعورة أتأمل احتفالهم، أحاول أن أضيع في زحامِ الأجسادِ، بعيداً عن ألمكَ، عن لهاث الخسارة التي ستعلن على الملأ غداً، عن الرعب الكامل الفضفاض الذي يملأني.

- لا ينبغي أن يسمحوا للعلماء بالرقص!

يتناهى إليّ صوتك ساخراً، ثم تضيف «يا للكارثة!»، لا ألتفت، لا أكترث، لا أنظر، لا أشعر، أغيب فقط، الغياب رائع، رائع! والشارع يهتز أيضاً، يهز وسطه، من علمه هذه الحركة؟

- إنهم لا يعرفون من الرّقص إلا اسمه.

- و لكنهم سعداء.

صمتٌ يبتلعنا معاً، لم تعد بحاجة إلى اختراع أسبابٍ للحديث، هذا السكوت يقول ما يكفي، يغنّي، يهذي..

كان ثمة رسوّ، وصول، لا أدري إلى أين، ولكن كلانا شعر به، السكونُ وسط كل هذا الصخب يحتضننا كغيبوبة.

- لنذهب.

لم أكن راغبة في المغادرة، أردتُ أن أمكث أكثر في تمام لحظة الانطفاء، العالم من حولي أرعنُ وغبي وأنا لا أهتم، الصخبُ يتعالى، فتىً سكرانُ يمـد كأس البيرة باتجاهنا، تنزعج، تقبض على ذراعي وتبعدني لخطوات: «لنذهب يا فرح»، أرفض أن أتحرك.

- أريد أن أتفرّج.

نبقى دقائق أخرى، العبثُ الذي يمارسونه يشبه ما أشعر به، دادائية مفرطة، الفتاة الفنلندية التي سكرت صعدت فوق

الطاولة وبدأت تخطب فجأة «الجنس هو العملية البيولوجية الوحيدة التي تتحرك فيها جميع خلايا الإنسان! أما كان الأجدر بهم اختبارنا بذلك عملياً؟ من الذي يكترث بعد كل هذه السنين بكيفية استخلاص السليلوز من ساق الذرة؟»

أتمتم:

- يا إلهي، ستحدث فضائح.

للمرة الثالثة تكرر:

- لنذهب من هنا.

- تتصرف وكأنها المرة الأولى التي تزور فيها مرقصاً.

- المرة الأولى؟ هل تظنين بأنني طوال أحد عشر عاماً لم أعربد؟ لقد كانت هذه الأجواء من مفردات حياتي اليومية، ولكنني أكرهها الآن.

- لماذا؟

- لا أدري، أشتهي ركل مؤخراتهم واحداً واحداً، أي شيء أي شيء أتحمله عدا أن تكوني في هذا المكان..

- ماذا دهاك؟

- بوسعنا أن نفعل شيئاً جميلاً، ما رأيك بركوب القارب؟ أم أنك ما زلتِ غاضبة؟ أنا لم أقصد ما قلته لك ظهيرة اليوم.. حقاً.. أنا..

- لا تهتم.

- كما تشائين، ولكن لا تنتظري مني أن أحملكِ فوق كتفيّ، فلستُ نبياً ولستِ أم المؤمنين وهذا الرقص ليس طاهراً بأي شكل..

تتلاحم الأجساد، ينكمشُ جلدي فوقي، ترتجفُ أطرافي وأشعر بعجز ساقيّ عن حملي، أتكئ على الجدار بثقلي، تتسلق عيناي السماء، أتمتم بألم «يا رب!» وأغمض عينيّ، يصلني صوتك وكأنه قادمٌ من البعيد، البعيد جداً:

- هل تريدين معرفة ما أردت قوله هذا الصباح ؟!

- قل.

قلتها بلا اكتراث، بأعين مغمضة ومشاعر تتخبط في اللا شيء، لا أبحث عن شيء ولا أنتظر شيئاً، الترقب ينطفئ،

الأضداد تتعادل، وكأن ليس هناك ما أجهله، وليس هناك ما أعرفه. تقترب، تقترب جداً، ترتلها:

- أحبك .

- لا أسمع؟

- أحبك!

- ماذا قلت؟

- تباً لكِ، أحبك!

- ارفع صوتك!! الموسيقى عالية جداً!!

- أحبك!!

- ارفع صوتك أكثر!!

- أردتُ أن أقول: أنت أغبى امرأة قابلتها في حياتي!!

التفتُّ، ابتسمتُ لك، همستُ:

- فعلاً .

أشيح ببساطة، وكأنني لم أتلقّ للتوّ اعترافاً مدوياً، أتظاهر

بالصمم، صدري يتمزق، في قلبي مجازر أطفال وصلبان تجأر من الألم، أقضم أظافري، ألتهم أطرافي التهاماً، أردفُ ببلاهة:

- هذه الأغنية رائعة !

و أهز رأسي معها، تهتز معه آمالك كلها، تتساقط تباعاً، مطعونٌ في قلبكَ أنتَ، يا مجنون.. إلى أي انتحارٍ كنت تريدني أن أتبعك، وسط هذا الضجيج الأهوج تدسّ اعترافك الأكثر فداحة؟ ماذا كنتَ تنتظر من فتاةٍ مثلي أن تفعل ؟ تتوّهم بأنني مجنونةٌ بما يكفي لكي أهجر الكويت من أجل صدرٍ دافئٍ لرجل، من يدري علّه يبرد في أية لحظة؟ أم أنه ذلك الصنف العبثي من الحب، الصنف الذي يشبهك، الذي لا يريد سوى أن يكون، وربما.. أن يعبّر عن نفسه، تماما مثل قصيدة؟

صراخٌ حالكٌ في عينيك، تتشبّث بي بنظراتك، تعرف بأنني أتظاهر بالصمم لكي أجنب نفسي عناء المواجهة مع مشاعرٍ تتجاوز قدرات خبالي، تدفن يدك في جيبك وتهمّ بالمغادرة، أعترضك دون أن أنظر في عينيك، بما يشبه الاعتذار، أهمسُ:

- لستُ مجنونةً بما يكفي.

- يوماً ما ستعرفين.. بأنكِ أكثر جنوناً مني .

بصوتٍ يتهدج ألماً، تدلقها في أذني بنظرات مقهورة وتدفعني عنك بعنف، ثم تجرجرُ خطاك ببطء، تتوسطُ حلبة الرقص، ها أنت تهتز بينهم الآن، تهتز بغباءٍ، مذبوحاً من الألم، فيما أنا أنسحب، ببطء، أتركك وطقوس بكائك، أمضي، بدموعٍ كثيرة..

لن أنسى ما حييت، مشهد بدويّ يرقص ألماً.. بين حشدٍ من الأعاجم.

22

زحامٌ وعَـرقٌ وأعـراقٌ، لا أراك بينها، أوزعُ التفاتاتٍ مذعورة، يميناً، يساراً، يميناً، من غير المعقول أن لا تحضر، وفي يومٍ حالكٍ كهذا، شائكٍ كهذا، كيف يمكنك أن تفعل ذلك بي؟

ملامحُ المكان مطموسة في المكان، مثل وجهٍ يهرب من وجهه، لا أرى شيئا، ولا أكترث للصخب الذي يتناهى رطينة رجراجة، كل شيءٍ غائب عني إلا الأسئلة، الأسئلة الدبقة العملاقة! أين أنت؟ يطارحني القلق.. إذ أنا أقطع الطريق المرصوفَ طويلاً منكسة الرأس، ناكصة، حاملةً حقيبتي فوق ظهري، في الطابور الذي سيأخذني - والبقية - إلى منصة التكريم والإهانة، أين أنت؟ أتراها خيبتك ليلة الأمس هي ما جعلكَ تعاقبني بغيابك ؟

الوفود تتزاحمُ خارج القاعة، يرتدون ربطات العنق، كلهم بلا استثناء، كان عليّ أن أحصل على واحدة، ولكن مالي ومالهم! ما أحتاجه الآن هو أن أراك، ها هوَ، بشاربيه المصبوغين، يمخر عباب الزحام باتجاهي منادياً:

- يا بنت!

- مرحباً أستاذ.

أشعر بقلبي يكادُ يقفز من صدري، عضاتي المتتالية على أظفاري تشي بارتباكي، أسرق نظرة إليه وأشيح خوفاً، يقطّب حاجبيه، يتحاشى الابتسام، حتى ضحكته البذيئة اختفت، بدا مستعداً لتقريعي، طوال الأسبوع الماضي وفي كل فرصة للطلبة للالتقاء بأساتذتهم كنت أفتعل أسباباً وأهرب، ها أنا الآن أقع، عزلاء جرداء، جائعة وبردانة، من دونك يا ضاري، هل مرّ أسبوعٌ حقاً؟

- ما هذا؟ طوال أسبوعٍ كامل لم أركِ، ولم تتصلي، ماذا كنتِ تفعلين؟

واضحٌ أنه لن يحصل مني على جواب، تدثرتُ بصمتٍ كثيف، هففتُ بيدي على وجهي وتذمرت ببرود مفتعل «الجو حارٌ اليوم!»، ودعوتُ الله أن لا يلحّ عليّ بسؤاله، أتشاغل في البحث عن منديل، أمسح به العرق الناضح من جبيني، يبتسمُ بنزق، وكأنه يفهم حيلي، يحاول محاصرتي بسؤالٍ أكثر دهاءً:

- كيف كان الاختبار؟

- لا بأس.

- هل كان كما توقّعتِ؟

- أليس الطقس حاراً اليوم؟

- الطقس رائع.

- كان مغايراً لتوقعاتي قليلاً.

- و كيف وجدتِ الترجمة؟

- أي ترجمة ؟

- ترجمة الاختبار.

- أوه، كنت أتحدث عن الطقس.

لا أثر لك بين هؤلاء، الزحام يشتدّ وأنت ترفض الظهور، أسئلته تقبضُ على عنقي، أقرر أخيراً أن أفضح كل شيء

- أستاذ، في الحقيقة، ثمة ما يجب أن أقوله لك، بخصوص الاختبار النظري، في الحقيقة، أنا..

يدٌ تخبطُ كتفي فجأة، بحميمية متناهية، يدٌ أعرفها! أغمض عينيّ وأهمس «الحمد لله!». بالصوتِ الرخيمِ، بالحزن الشفيف بالأعين، بالظلال تمتدّ أسفل الرموشِ

الحزينة، بالشوق، بالصداقة، بالحب، بكل شيء، تنتشلني بابتسامتك، ابتسامتك المبتورة الحبيبة:

- صبّحكم الله بالخير.

أهز رأسي مبتسمة ولا أستطيع أن أجيب، ضاري هنا يا إلهي! ضاري هنا مرة أخرى!

يحييك أستاذي، لم يكن لقاؤكما الأول، التقيتما لحظة مراجعة الترجمة على الاختبار، تصافحتما ببرود، ابتسمتَ بحزنٍ، سألتني بلهجةٍ حبيبة:

- شلونك فرح ؟!

- تمام!

نبتسم، نبتسمُ طويلاً، مبسمٌ يوقظ في أطرافنا الكهرباء، يا لتلك الكيمياء السحرية التي فاضت في المكان، كنت أنظر إليك وأردد بيني وبيني: كم هو شوطٌ طويل هذا الذي قطعناه معاً يا صديقي! ترى.. كيف بوسعنا - بعد كل هذا الألم - أن نلتقي بعد غيابٍ قصير ببهجة لا تسعها الأرض، وكأننا غبنا أعواماً؟

أي وطنٍ أنت، أي منفى؟

أردف الأستاذ:

- سيبدأ حفل الختامِ بعد دقائق، من الأفضل أن نبحث عن أماكننا.

و هززنا رؤوسنا كالأولاد المطيعين، سرنا خلفه، كلٌّ ينظر إلى الآخر بصمت ويبتسم بمكر وتوق، التفتَ الأستاذ إلي وسأل:

- سيبدؤون بذكر أسماء المركز الأخير وينتهون بالمركز الأوّل، كوني مستعدة.

يقول ذلك وكأنه يجهزني للفضيحة الأقسى فضيحة يتنبأ بحلولها بفضل حضور عشر مسابقات أولمبياد دولية حول العالم، أرتعد، أرتعش، قدماي تضعفان فجأة، يمضي هو وأخاله يقهقه دون أن يفعل حقاً، أنظر إليك جزعة، تقلقُ بدورك، ربما تشعر بتأنيب الضمير، أهمسُ بك هلعة:

- ماذا سأفعل؟

- أنتِ نادمة ؟

- لا.

تبتسمُ كطفل، ثم تردف وأنت تغمز:

- لا تهتمي، سأتدبر الأمر .

- كيف ؟

- ثقي بي.

همساتٌ اختلسناها، تدفأنا بهـا، ومضينا، لا أعرف إلى أين، ولكنني أعتمدُ عليك، تعود إلى الالتفات وتهمس وعلى شفتك ابتسامة شغب:

- يا مجنونة، هل كنت حقاً تريدين إخباره عن عدم تقديمك للاختبار؟

- سيعرفُ بذلك عاجلا أو آجلاً.

- تماسكي فقط.

أيّ جدوى في مواراةِ عارٍ سيكشف على المسرحِ بعد دقائق معدودات؟ ما من جدوى في الحقيقة، ولكنه ألمك فقط، ألمكَ عليّ ولا شيءَ آخر.

دخلنا القاعة، لا أحد يعرفُ تحديداً ما سيحدثُ، رغم أننا ننوء بالنبوءات والرعب.

23

قبّةٌ حمراء، منقوشةٌ بالغيم وصغار الملائكة، المسرحُ عريض، والبنيّات الصغيرات يرقصنَ متحدّات، يرتدين ملابس الريف الزاهية بالأحمر والبنفسجي والأبيض، الأولاد على ركبهم واقفون، يصفقون للفتيات، ثم يشاركونهنّ الرقص على أهازيج أرياف السويد، كان عرضاً مبهجاً، ولكن ليس بالنسبة لي.

دخلنا القاعة الضخمة - أنا وأنت والأستاذ - وكان العرضُ قد بدأ، أشارَ الأستاذ إلى مكاني ومكانه، ثم أردف لك بأن المرشدين من المفترض أن يجلسوا في الجناحِ الأيمنِ للقاعة، نظرتُ إليك بجزع، هل سننفصل؟

هززتَ رأسكَ للأستاذ الذي جلسَ بدوره، وتفرغ لمتابعة الرقص، ناديتكَ ملتاعة، دون أن أملك ما أقول:

- ضاري !

- ثقي بي .

ثمّ غمزتَ لي ومضيت، وفي لحظةٍ كنتَ قد ذبت في الزحام، أنظر إليك ذاهلة، يشير إليّ الأستاذ بالجلوس، أجلسُ ذاهلةً أيضاً، أقبضُ بأسناني على أظافري، أنتفها دون هوادة، دون رحمة، أفتش في جيوبي عن منديلٍ أنتفه، ينبغي أن أبقي نفسي منشغلة لكي لا أنهار، يقرّب الأستاذ وجهه مني ويسأل بفضول نزق:

- ماذا يريد منكِ؟

- يخبرني عن موعد الغداء.

في سؤالِهِ غمزٌ وخبث، أتظاهر بعدم الانتباه، بمجرد انتهاء فقرة الرقص صعد منظّم الأولمبياد إلى الخشبة وألقى خطبة مقتضبة، لمدة عشر دقائق، لم أسمع منها حرفاً، ولا أذكر اسم الشخص الذي كان يخطب، لا أذكر إلا بياض لحيته.

لم يبدُ على الأستاذ أنه كان يسمع، كان منتبهاً إليّ، وكأنه يتوجس أن لدي ما أخفيه، وما سينكشفُ قريباً، يحاول صنع حوار ما، بإثارة انتباهي إلى شخص ما، أو بالتأفف وطرح الأسئلة حول ما جرى معي الأسبوع الماضي، أرد باقتضاب، رداً يضع حداً لأي محاولةٍ لفتق حوار، أتظاهرُ بالصمم أحياناً، ومراتٍ بالانشغال بالخطبة التي لا أذكر منها شيئاً.

هواجسي تترنّح، بدأتُ أفقد تماسكي، البرد يستوطنُ إلى أطرافي، أظافري ازرقّت وركبي اصطكّت، أحاول لملمة بعضي بعضاً، أقلِبُ خسارتي انتصاراً، انتصارا على أي شكل، حتى لو كان بدويا ضاع في زحام العالم.

هل ينبغي أن أطيعك حتى النهاية؟ هل أتجاهل الأمر برمته، أم أصعد إلى المسرح لأحصل على شهادة الشكر المفرغة من الشرف، لمجرد أنني تكبدت عناء المجيء والمشاركة - غير الفعالة ولا المجدية - في مسابقةٍ علمية عالية الأهمية؟

خطبةٌ ثالثةٌ تنتهي، هذه المرة كان شعرُ الخطيب منكوشاً، تساءلت.. هل يمرّ الوقت بسرعة شديدة أم ببطء شديد؟

عُزِفتْ مقطوعةٌ موسيقية أخرى، قصيرة، لكن باعثة على الاسترخاء، أعبئ صدري بالشهيق، أملأ رئيتي بالهواء وأطلقه، لا أستطيعُ التركيز على شيء.

صعد إلى المسرح ثلاثة، ذو اللحية وذو الشعر المنفوش وامرأة سوداء البشرة، ممشوقة القد، ترتدي ثوباً أسود يصل إلى منتصف فخذيها، وقام الصغار الذين شكلوا فرقة

الرقص بدفع طاولةٍ متحركة إلى منتصف المسرح، رصت عليها شهادات تذكارية لتكريم الطلبة.

أزفت الآزفة ! قلبي يرتعد، أطرافي تتشنج، أعضّ شفتيّ وأدميها، أكاد أبكي، الأستاذ يرمقني بنظراته، ولكن دونها سخرية، يا للرثاء في عين من لا تحب! أغمض عينيّ وأناجيك «ماذا سأفعل يا ضاري؟» أصواتهم ضخمة، متورّمة في المايكروفون، بأعجمية حطمت مفاصلي:

- فارا ناسر !

ارتعدت فرائصي، تهـاويتُ عاجزةً بمجرّدِ أن حاولتُ النهوض، وبدأت أنشجُ وسط الملاحظات التي بعثرها الأستاذ: «فرح، إنهم ينادونكِ»!، عمّ سكونٌ مرعبٌ في أنحاء المكان، صمتٌ مشلٌ يذهب بالحواس، الجميع يحبسون أنفاسهم، يترقبون ظهور هذه الـ«فارا ناسر» لتتلقى شهادة حصولها على المركز الأخير، وشكر لطيف وتصفيق متفرق من بعض المشفقين لا أكثر! لا أرى شيئاً أمامي، هذا البلل المالحُ يقتل المشاهدَ حزناً!

نهضتُ، أردد أدعية ما، التفتت الوجوه لتأمّلي، الحمرة تقطر من وجهي، أثبتُ نظري على المسرح، لا أنظر إلى أحد،

أكرس البقية الباقية من توازني لأخطو، خطوة، خطوتين.. يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث، يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث! همهمات وتمتمات وأصواتٌ مشوشة، ثمة من يركض مسرعاً من آخر القاعة، يركب درجات المسرح مسرعاً، يقطعها أربعاً فأربع، يتوسط المسرح، شعرٌ مردودٌ إلى الخلف، ياقة مهملة، بلوزة رمادية، أعينٌ حاذقة وابتسامة ساخرة، قسماتٌ تلتذّ بكل الزيف الذي يجري، وسط شبق الذهول الذي يقطرُ ترفاً، وسط هديرٌ يصفق مهتاجاً، لا أفهم كيف حاز كل هذا الهتاف! يصافحُ الأيادي الممدودة، يدين بيضاوين ويداً أنثوية غامقة، يبتسم، يحييهم جميعاً، ما إن يفرغ من مصافحة حتى يضع راحة يده على صدره وينحني، تماماً كما يفعل الرجال في وطني! والرجل - ذو الشعر المنكوش - مبتهجاً بالكائن الذي لا يشبه شيئاً، حياه بحرارة فإذا هو يطبع على أنفه قبله، يبتسم أيضا، ينظر إلى الجمهور، يلوّح بالشهادة، يرفعها عالياً، يتعالى الصفير والتصفيق، يبتسم ابتسامة أكبر، تظهر أسنانه لأول مرة، منذ متى يبتسم هذا الفتى ابتسامة تامة؟ يهبط درجات السلم بذات السرعة الخاطفة التي أتى بها، يمضي قدماً، يذوب في الزحامِ من جديد، أنا وأستاذي نصرخُ بصوتٍ واحد: ما الذي فعله هذا المجنون؟

24

أعبرُ الزحام، أجدف بيدي وقدمي، أصنع ثغرة بين آدمي وآخر، أتسلل عبرها، أردد: «ضـاري، يا حبيبي.. ماذا فعلت؟». الجموع تتبدد من أمامي، ما إن تلمح الاحمرار الطفيف في الأعين حتى تُفسح لي الطريق، تاركةً أستاذي من ورائي ينادي دون أن أعبأ به، والطلبة المتسابقون ما زالوا يصعدون الخشبة واحداً فالآخر.

وجدتكَ متكئاً على أحد الأعمدة في الخارج، تدخن، تدخن ببساطة! وكأنك لم ترتكب أمـراً مزلزلاً للتوّ! تلمحني أقتربُ، تبتسم بخفوت، تطلق الدخان من أنفك وأنت تراقص حاجبيك، هل هذا وقتُ المزاح؟ أقترب منك، الدموع تنهالُ على خديّ، مطر .. مطر .. مطر، أتسمّر أمامك وأدمع، وأتأملك تنتشلُ آخر أنفاس السيجارة وتلقيها في صدرك، تبتسمُ مرة أخرى، متأملاً دموعي، ثم تسأل بفضول:

- كيف كنتُ أبدو ؟

- كالمجانين ! كالمجانين تماماً !

أبكي كالأطفال، أصيحُ بك «لماذا فعلت ذلك؟»، ولكنك لا تكترث، تفتش جيوبك باحثاً عن منديل، تناولني إياه، أمسحُ دموعي وأنفي، أكوره بيديّ، أتكئ على العمود إلى جانبك، أحدقُ إلى السمـاء، فوقي غيمة منتفخة بالبياض، لحظاتٌ مرّت كيفما اتفق، ثم انفجرنا في نوبة ضحك! تقوّض الزمن في ضحكة عملاقة، تشققت على إثرها صدورنا، ضحكنا.. ضحكنا حتى دمعت عيوننا، ضحكنا حتى انقلب الضحك إلى نشيج وما عدنا نفهم شيئاً!

تمتمتُ من بين صياحي وضحكي:

- أيها الوغد، لم تفعلها من أجلي.. فعلتها من أجل الكويت!

ارتفع كتفاك بحيرة، وعدنا نضحك ..

25

لم ننم، ولكننا لم نفعل شيئاً آخر!

تلك الليـلة - الأخيرة جـداً - جلسنا متكئيْنِ على أحـد القوارب المرمية بإهمـالٍ على ضفاف بحيرة «فيس»، جلسنا وصمتنا، تحدثنا عن الله والغيم والعشب والعصافير، تحدثنا عن الأطفـال، عن العفاريت والجن و«حمارة القايلة»، تحدثنا عن العِلم، عما وراءه، عن أكل الجراد والضب، عن بوشكين، عن الشمس، عن إنارات الشارع، عن الشارع، عن القطط الضالة، عن اللؤلؤ في بطن الخليج، عن شادي الخليج، عن بطولة الخليج، تحدثنا عن المال، عن الدراسة، المستقبل عديم المعنى، الماضي المتخم بالمعاني، الحاضر الذي نذعر لأنه يفلتُ من بين أيادينا، أيادينا التي تشابكت جداً.

تلك الليلة - الأخيرة جداً - لم نفعل أكثر من الحديث، لم يكن هناك متسع لغيره، الأحاديث التافهة التي همشناها

طوال الأيام الماضية ليومٍ كهذا، الأحاديث التي لا تقول شيئاً، عن الجـوارب المثقوبة ووجبة ماك رويـال، عن مسلسلاتنا التلفزيونية التي لا نفوتها حتى لو انطبقت السمـاء على الأرض، وعن أطفال العراق وسجناء كوبا..

تلك الليلة - الأخيرة جداً - لم نفعل أكثر من العبث، ننفشُ الأسئلة لنجيب عنها، ما هي عاصمة المجر؟ بماذا تقاس سرعة الضوء؟ من هـو مؤلف «دكتور جيكل ومستر هايد»؟ وإذا عدت إلى الكويت، ما أول شيءٍ ستفعلينه؟ سأنام، سأنام فوراً، لأن اليقظة عقابٌ في عالمٍ حزين، والنعاس حيلة باهتة للتعاطي مع هذا الحياة بوعيٍ أقل، بحزنٍ أقل بالضرورة!

تلك الليلة - الأخيرة جداً - لم نفعل أكثر من الغناء، خيطُ الأغاني الذي يبدأ من «عوض الدوخي وينتهي بـ«برتني سبيرز»، بما في ذلك الأغاني الوطنية التي تحفظها ولكنك لا تؤمن بها، مسلسلات الكرتون التي تجمع بيننا أكثر من أوطاننا، بداية بعدنان ولينا وانتهاءً باللا مكان، حيث تضيع الطفولة وتتآكل..

تلك الليلة - الأخيرة جداً - لم نفعل أكثر من القلق، بعد أن قطعنا شوطا طويلاً من الثرثرة، ورأينا أخيراً بأن ثمة وقفةً جادةً يقتضيها الآتي، لأنه مؤلمٌ بما يكفي.

- راسلني.

- لا.

- لماذا؟

- لا أحب الحلول الوسط.

أدركُ أنها النهاية، أهز رأسي وأسألك «ما هو تعداد السّكان في محافظة حولّي؟».

تلك الليلة، كان المستقبل أمامي شامخ الملامح، أحفظ كل تفاصيله عن ظاهر خيبة، من كان يصدق أنه لن يجري كما قدّر له؟ تسألني:

- ستدرسين الطب؟

- أعتقد ذلك.

- في جامعة الكويت ؟

- على الأرجح.

- بالتوفيق!

تقولها غير مكترث، وربما ساخطاً إلى حدٍّ ما، إلى حد الدمدمة الغاضبة «يوجد في السويد جامعات أيضاً!».

أسألك:

- ما هو متوسّط المسافة التي يقطعها الضوء بين الأرض والشمس؟

ولا تجيب، لأن الضوء لا يهمك، ولا الشمس ولا الأرض، لا شيء، لا شيء! تلك الليلة - الأخيرة جداً - لم نفعل أكثر من البكاء، لأن أصابعنا التي تشاغلت بقشعِ الصبغ الأصفر عن سطح القارب، نعرف كم نحن خائفان، ولكن النتائج لم تعد مهمة، لأننا لا نجهلها كثيراً، تلك الليلة - الأخيرة جداً -دفنتَ وجهك بين كفيك طويلاً، وصمتّ طويلاً، ثم رفعته إلى السماء مشبعاً بحمرةٍ حزينة وزفرت:

- انتبهي إلى نفسكِ جيداً.

ولحظة قلتها تلاقت أعيننا، ثم ابتسمنا بألم.

26

أدس أشيائي الصغيرة في الحقيبة كيفما اتفق، تتراكم مثل قططٍ بردى، أغطيها كلها - بفوضاها - بمنشفة عريضة، أقفل الحقيبة، مدركةً أنني أقفل معها مرحلةً من حياتي، عامرة هي الأخرى بالفوضى والامتلاء.

ألقيتُ نظرة أخيرة على شانغ أوو، تنامُ بثغرٍ مفتوح، وراحةٍ متناهيةٍ، والميدالية الذهبية تستلقي بدلال عذراءَ على المنضدة، أبتسمُ لجمال المشهد، لحلاوة الاطمئنان في قسماتها، أهمهمُ بسعادة «شوشو.. أنتِ الأفضل!».

أمضي، لا أحتاج إلى التفاتاتٍ أخيرة، أنا أيضاً أصبحتُ مثلكَ لا أقبل بأنصافِ الحلول، ولحظة طلبتْ مني عنواني للمراسلة أعطيتها عنواناً كاذباً.

مقوّسة الظهر أمضي، بحقيبة ثقيلة، أحملُ فوق كتفي حباً ومنفى، الفرحُ الشفيف الذي استقبلتني به أبسالا تشيعني به اليوم، الرذاذ ذاته، العشب ذاته، الشمسُ الخالدة ذاتها، وأنت - يا أسطورتي البدوية - ذاتك أيضاً، تثرثر مع سائق

التكسي الذي جاء ليقلني إلى المطار، متوكئاً على السيارة بجنبك الأيسر، تهز رأسك ضاحكاً، تبدو وسيماً أكثر من المعتاد، وأكثر مما ينبغي!

- هيه، يا سيّد.. ثمة امرأة بحاجة إلى المساعدة!

أناديك، واقفة على عتبة السكن، أقبض بصعوبة على حقيبتي، تبتسمُ بدورك:

- هذه المرأة لا تحتاج إلى مساعدة أحد!

تحمل الحقيبة، تضعها في صندوق السيارة، أراقبك بصمت، فراقنا مؤلم وجميل، ونحن موجوعيْن وسعيديْن في الوقت ذاته، فهذا الشيء الذي بيننا، والذي لن ينتهي أبداً، لأمرٌ عظيمٌ ورائع!

- عدني أن تزور الكويت يوماً.

- أنا لا أقطع وعوداً لفئران.

لا أرد، لا أستطيع - بعد الآن - أن أصنع ردوداً، وإن كان لابد من المضيّ فليكن مضياً حاداً كنصل، دقيقاً كشعرة، ومستقيماً كصراط الله! من دون تراخٍ ولا تلويحات وداع،

مجرد أعين تتلصص من وراء رموشها وقلبٌ يسأل ذاهلاً «هل ذهب؟»

أحدق فيك، أخزنك في عينيّ، متعبٌ هذا الطريق الذي قطعناه.

زامورُ سيارة الأجرة يثقب حميمة الموقف، تلوكُ الكلمات ببطء:

- لقد حان الوقت
- فعلاً.

الذعر الذي تجلى في صوتي رعشةً مبحوحة أفقدكَ تماسكك أنت الآخر، طفرت دمعة من عيني، تنهرني بحزم:

- لا تبكي يا جبانة!

ولا أبكي! أركب السيارة، أنظر إليك من النافذة، تبتسمُ، تطرق برأسك، أشيح ببصري، السيّارة تمضي، أنت لا تلوح، وأنا لا ألتفت.

ضاري ..

تكسي مكة!

الكويت / أكتوبر 2003

المؤلفة

بثينة وائل العيسى

مواليد 3 سبتمبر 1982

- حاصلة على شهادة الماجستير في تخصص التمويل والمنشآت المالية، كلية العلوم الإدارية - جامعة الكويت 2010

صدر لها:

- ارتطامٌ لم يسمع له دوي (رواية) عن دار المدى - سوريا 2004.
- سعار (رواية) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت 2005.
- عروس المطر (رواية) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت 2006.
- تحت أقدام الأمهات (رواية) عن الدار العربية للعلوم - بيروت 2009

- قيس وليلى والذئب (نصوص) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت 2011
- عائشة تنزل إلى العالم السفلي (رواية) عن الدار العربية للعلوم - بيروت 2012.

الجوائز:

- حائزة على جائزة الدولة التشجيعية عن روايتها «سعار» 2005/ 2006.
- حائزة على المركز الأول في مسابقة هيئة الشباب والرياضة -2003 فرع القصة القصيرة.
- حائزة على المركز الثالث في مسابقة الشيخة باسمة الصباح - فرع القصة القصيرة.
- حائزة على المركز الثالث في مسابقة مجلة الصدى للمبدعين 2006.

http://www.Bothayna.net
Twitter @Bothayna_AlEssa

ارتطامٌ

لم يُسمَع له دويّ

"هنا .. لا تجد العتمة إلا في باطنك العميق، حيث أنت وحدك، توغل في التيه. العالم من حولك يتحدث كل اللغات إلا لغتك، و أنت بجلدك الأسمر ناشزٌ عن اللوحة، فاخلع نعليك! ليس امتثالاً لطقوس المثول في الأودية المقدّسة، وإنما لتركض في داخلك بأسرع ما تستطيع .."

مقتبس قصير من جسد رواية (ارتطامٌ ..) أن توفق الكاتبة بأن تختزل كماً هائلاً من تناقضاتنا (إنّا) الإنسان الشرقيّ العربيّ، ابن أو ابنة العالم الثالث.. الذي لم يعد ثالثاً.. (.. لم يُسمع له دويّ) ليست صوتاً مباشراً أو ضمنياً بأيديولوجية بذاتها، لكنها - بذاتها - انتصار لإنساننا إياه، فمحاولة لإضاءة جانب - و إن بدا متواضعاً - للظلام الحالك المعشش في الأغوار (منّا) ..

عرفتها قاصة، و تابعتها، بين آونةٍ وأخرى، شاعرة مرهفة، و هاهي - أحسدها - روائية، مؤهلة لأن تحتلّ موقعاً تجريبياً مميزاً. تعرية اللغة إلى جانب جزالتها، رهافة تتشرب بالصدق، بما يحقق للنص حميمية الالتقاء بذات المتلقي، هدف الانتماء إليه .. إليها. إذا أجزنا لأنفسنا القول (هناك رواية في الكويت) أقول: هذه الرواية خطوة نوعية نحو الواعد.

إسماعيل فهد إسماعيل الكويت 2005

بريشة، سارة المندي / الكويت


ISBN 978-99966-59-01-0

Tel.:+965 - 22256141 Fax: +965 - 22256142
P.O.Box: 20585 Safat Postal Code: 13066 Kuwait
Info@aafaq.com.kw www.aafaq.com.kw

